

سلسلة أعلام التجانية في تونس (1)

الشيخ سيدي محمد قمار وتجريد الطريقة التجانيّة في تونس

لطيف زرقي
دكتوراه في العلوم الإسلاميّة
جامعة الزيتونة

سلسلة أعلام التجانيّة في تونس (1)

الشيخ سيدي محمد قمار

وتجريد الطريقة التجانية

في تونس

لطيف زرقي

دكتوراه في العلوم الإسلاميّة

جامعة الزيتونة

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمة الطبعة

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أمّا بعد أيّها لقارئ الكريم،

صحّ عن أبي الدّرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من سلكَ طريقًا يبْتَغي فيهِ عِلمًا، سلكَ اللَّهُ بِهِ طريقًا إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائِكَةَ لتَضعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ لَهُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتَّى الحيتانُ في الماءِ وفضلُ العالمِ على العابدِ كفَضلِ القمرِ على سائرِ الكَواكبِ إنَّ العُلماءَ ورثةُ الأنبياءِ إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا دِرهمًا إنَّما ورَّثوا العِلمَ فمن أخذَ بِهِ فقد أخذَ بحظٍّ وافرٍ**"[1]

لقد كان هذا الحديث الجامع لكل الدين ككل أحاديثه صلى الله عليه وسلم، يحفّزني ويدفعني إلى جمع إرث واحد من أكابر المربين في الطريقة التجانية وهو المحتفى به رضي الله عنه في هذا الكتاب، ألا وهو سيدي محمد بن إبراهيم القماري مقدم الطريقة

[1] - أبو داوود والترمذي وابن حبان وابن ماجه كلهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

التجانية في تونس العاصمة، لقد كنت ألازمه جلّ أوقات اليوم والليلة وكنت أتشوق لعذب كلامه وما أعطاه الله تبارك وتعالى من الفهوم الجليّة الصافية، فكنت أدوّن كلامه أمامه وهو يتكلم وأنا أكتب وإني أعتقد أن هذا هو الإرث الحقيقي لهذا الرجل الذي قلّ أن يجود الزمان بمثله، وهو وارث محمدي عارف بالله تعالى كما سنرى من خلال هذه الترجمة المباركة إن شاء الله، وقد وردت الوراثة النبوية في آخر حديث سيدنا أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه مَرَّ بسُوقِ المدينةِ فوَقَفَ عليها فقال: **يا أهلَ السُّوقِ ما أَعْجَزَكم! قالوا: وما ذاكَ يا أبا هُرَيرةَ؟ قال: ذاكَ مِيراثُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُقَسَّمُ وأنتُم هاهنا، ألَا تَذهَبونَ فتأخُذونَ نَصِيبَكم منه؟ قالوا: وأينَ هو؟ قال: في المسجدِ، فخَرَجوا سِراعًا ووَقَفَ أبو هُرَيرةَ لهم حتَّى رجَعُوا فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هُرَيرةَ قد أَتَيْنا المسجدَ فدَخَلْنا فيه فلم نَرَ فيه شيئًا يُقَسَّمُ؟ فقال لهم أبو هُرَيرةَ: وما رَأَيتُم في المسجدِ أحدًا؟ قالوا: بلى، رَأَيْنا قومًا يُصلُّونَ وقومًا يَقرؤُونَ القرآنَ وقومًا يَتَذاكَرونَ الحَلالَ والحَرامَ، فقال لهم أبو هُرَيرةَ: وَيْحَكُمْ فذاكَ مِيراثُ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ".**[1]

[1] - الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ويشهد كل من عرف سيدي الحاج محمد القماري رضي الله عنه أنه وارث كامل مكمّل وأنه أفنى عمره في بث هذا الإرث النبوي لأبناء المسلمين.

وها نحن تلاميذه مازلنا نلهج بذكره وكراماته وأقواله وتوصياته ومواقفه في جميع أحوال الدنيا والدين، فقد ترك أثرا واضحا لاسيما أنه تميز بخصائص قلّ وجودها عند غيره وهذا شأن كل الأكابر يسخّر علمه وعمله لخدمة أهل الله المؤمنين المسلمين وخدمة جميع أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد كان رضي الله عنه متمسكًا بالسنّة النبوية قولاً وعملاً وإرشادًا لا يفوّت منها شيئًا في أقل القليل كما سنكتشفه في ثنايا هذا الكتاب.

ولا شكّ أنه مما يفتقده الناس اليوم هو القدوة أو المثال الأعلى الذي يلقون إليه السَّلَم ويتبعونه في دينهم ودنياهم، فقد اهتزّ هذا المنصب، منصب القدوة، اهتزازا عظيما في العصور المتأخرة فضَعُفَ دور المعلّم والأستاذ والمربّي ولم يعد للوالد أو الأم القوة الأدبية التي كانت من قبل ولا لكبار السن ولا لرجال الدين كما كانت من قبل وهذا لأسباب عدة ليس هذا محلّ البحث فيها.

لقد كان شيخنا سيدي محمد القماري قدوة من كبار المربين في طريقتنا الأحمدية التجانية، يعرف هذا الأمرَ الخاصُّ والعامُّ ويشهد له به كل من خالطه أو قابله من العارفين الكمّل والشيوخ

أهل الرسوخ والتلاميذ الصادقين، فظهر نوره وسره في كل من لقّنه الطريقة وصلحت دعوته واستجيب لمن دعا لهم من الناس، ولمّا كانت التربية في طريق السلوك إلى حضرة الله تعالى لا تكون إلا "بأحوال الشيوخ وأحوال المربين" وجب علينا لهذا الأمر بالذّات تقييد أحواله وأقواله وأفعاله وتوصياته حتى ينتفع بها كل من عسى أن يطلبها، وحتّى لا يصدق علينا قول من قال: "تلاميذ قتلوا شيخهم ... لم يدوّنوا عنه العلم الذي علمهم"

وها أنت أيها القارئ العزيز أمام جملة من أجمل أقواله وعموم أحواله رضي الله عنه حيث أنّي كنت ألازمه جلّ أوقات اليوم والليلة وكنت أدون مما أعطاه الله تبارك وتعالى من الفهوم الجليّة الصافية التي تزيح الأوهام وتصلح النفوس وتحصن من الأنانية الفاضحة لأمراض القلوب وتأخذ بلبّ كلّ صادق إلى حضرة محبة الله تعالى ومحبة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ومحبة الأمة جمعاء بل إلى محبة كل مخلوق وتدل على الله تعالى لا على غيره فكنت أدوّن وأسجل كلامه وأحواله فانتفعت بذالك ايّما نفع لله الحمد فأحببت أن يشاركني غيري في هذا النفع العميم.

وسوف يكتشف القارئ الكريم كيف كان لهذا الرجل المتميّز الدور البارز في إحياء هذه الطريقة السنيّة التجانيّة في بلادنا التونسيّة والعودة بها إلى المعين العذب الصّافي كما وضعها صاحبها

سيدي أحمد التجاني على منهج السنّة النبويّة المطهّرة بعدما ضعفت هذه الطريقة في بلادنا وربما أوشكت على الاضمحلال في بلادنا فانظر أيها القارئ الكريم كتاب الدكتور لطيف الزرقي "**الطريقة التجانية في تونس: التاريخ والآفاق**" يبن لك ما قلناه جليا جزاه الله خيرا.

اللهم جاز عنا شيخنا ومربينا الحاج محمد القماري أعظم الجزاء بما أسداه لنا ولأولادنا ولبلادنا ولسائر المسلمين من العلم النافع والتربية المزكية للنفوس وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وجميع أمته آمين.

الحاج الحبيب بن حامد

لطف الله به في الدارين آمين.

10 محرم الحرام 1441 هـ / 9 سبتمبر 2019 م.

تمهيد

قال الإمام الشّافعي (204هـ=819م)[1] رضي الله عنه "كان الليث بن سعد (175هـ=791م)[2] أفقَه من مالك(179هـ=795م)[3]، ولكنّ

---

[1]- هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150هـ-204هـ-767م-819م) القرشي عالم عصره وصاحب المذهب المنسوب إليه وهو أوّل من جمع قواعد أصول الفقه وجعلها علما مستقلّا. تراجمه كثيرة ومفصّلة انظر: موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل، ط1، تونس 1428هـ=2007م، 14/95-109.

[2]- الليث بن سعد بن عبد الرّحمان (94هـ-175هـ=712م-791م) عالم الدّيار المصريّة وصاحب الإفتاء فيها، كان من أجلّ أهل العلم والحديث في زمانه علما وصلاحا وسخاء، يعدّ نظيرا للإمام مالك بن أنس وهناك من فضّله على مالك وهناك من فضّل مالكا عليه. الذّهبي (شمس الدّين محمد بن أحمد) -سير أعلام النّبلاء: أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرسالة، ط1، بيروت 1402هـ=1982م، 8/136-163.

[3]- مالك بن أنس رضي الله عنه (93هـ-179هـ=711م-795م) أو(94هـ-175هـ=712م-791م) إمام دار الهجرة وإليه ينسب المذهب المالكي ويسمّى إمام الأئمّة لأخذ عدد من الأئمّة عنه مثل الشافعي وسفيان الثوري والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك وغيرهم: انظر، مخلوف (محمد بن محمد بن عمر بن قاسم) - شجرة النور الزكية في طبقات المالكيّة: خرّج حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد الخيّالي، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت لبنان 1424هـ=2002م، 1/80-83.

أصحابه لم يقيموه"[1][2] كانت هذه المقولة الشافعيّة محفزا لكل التلاميذ الذين اقتنعوا بشيوخهم وآمنوا بأفكارهم ليتحوّلوا بدورهم إلى قنوات تمرّ من خلالها تلك الأفكار، وتتجلّى هذه المعادلة بشكل تامّ في علاقة الشيخ قمار المترَجَم له بشيخه وأستاذه الشيخ الأحسن البعقيلي[3] كما سيتضح ذلك في ثنايا هذه الترجمة.

كان الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي، باعتباره صوفيّا ومفكّرا معاصرا، ينشط داخل المغرب الأقصى، ولكنّه كان يمدّ ناظره إلى تونس الخضراء، فأرسل إليها كتبه ومؤلّفاته. كما عَمَدَ إلى أحد أنجب تلاميذه وخُلاَّصِ أصحابه، سيّدي محمد بن إبراهيم القماري، فأرسله إلى تونس وأمره باستيطانها، فيكون الحديث عن الشيخ سيّدي محمد قمار في تونس شكلا آخر من دراسة الفكر البعقيلي، خاصّة أنّ ما بذله الشيخ قمار من جهود لتركيز الطريقة التجانية وتجديدها في تونس يرتبط ارتباطا عضويّا بفكر الشيخ البعقيلي وكتاباته، حيث يقول عن شيخه

---

[1] – لم يقيموه: بمعنى لم يحافظوا على مذهبه وعلمه ولم ينشروه بين الناس.

[2]– الذّهبي –سير أعلام النّبلاء: 156/8.

[3] – الشّيخ الأحسن بن محمد البعقيلي (1300هـ/1883م– 1368هـ/1948م) من مشاهير شيوخ الطريقة التجانية وعلمائها. له مصنّفات كثيرة في شتّى مجالات العلوم الشرعيّة، من تفسير وفقه وعقيدة، زيادة عمّا تميّز به من مصنّفات في أذواق الطريقة التجانية وآدابها وفضائلها. تُرجم له في مصنّفات كثيرة منها: السّوسي (محمد مختار): المعسول: مطبعة النجاح الدار البيضاء المغرب، 1960م–1963م. 155/11.

البعقيلي "هو شيخنا في كل شيء"، فكانت كلّ حياة الشيخ قمار تعدّ ترجمة عمليّة وواقعيّة لكلّ أفكار الشيخ البعقيلي وتوجيهاته وهو بذلك يقدّم المثال المتكامل عن إحياء التلاميذ لشيوخهم.

ونحن بدورنا إذ نقدّم هذه الترجمة الوجيزة للشيخ سيدي محمد قمار فإنّنا نقدّم نموذجا آخر عن إحياء التلامذة لشيوخهم من خلال ما سنقدّمه حول أهمّ تلامذة الشيخ قمار الّذين رافقوه وخدموه فحفظوا سيرته وأخباره وتشرّبوا طريقته ومنهجه[1].

---

[1] – انظر كلمة الحاج الحبيب بن حامد في ذكرى انتقال الحاج الأحسن البعقيلي 2006م. موقع القماري البعقيلي:

\http://zaouiatijania-tn.com/?page_id=1525

الشيخ قمار

قبسات من أطوار حياته

نسبـه:

ينتمي الشيخ سيّدي محمد قمار بن إبراهيم بن الطّيّب بن خالد السّوسي القماري إلى النّسب الشّريف الحسنيّ الفاطميّ. وقد أخذ سيّدي محمد قمار تحقيقَ هذا النّسب وتصحيحَه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم مشافهة يقظة لا مناما، على عادة أهل الخصوص من الأولياء والصّالحين[1] فقد كتب بخطّ يده في مذكّراته الشّخصيّة متحدّثا عن نفسه "كأنّي أنظر إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم ينطق بلساني يقول لي: أنت شريف، أنت ولدي – ثلاث مرّات – وكان ذلك سنة 1933م". أمّا لقبه "قمار" فنسبة لقرية "إيدا قوقمار" التي وُلد ونشأ فيها والتي تقع في إقليم سوس جنوب المغرب الأقصى.

---

[1] – الاجتماع برسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقظة، يُعدّ مسلّمة عند أرباب الأذواق من الصّوفيّة، نمسك العنان عن الخوض في مناقشتها وإثباتها لكثرة من فعل ذلك. انظر السّيوطي (جلال الدّين): تنوير الحلك في رؤية النّبي والملك، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الأمان القاهرة مصر 1414هـ–1993م.

أُسرتـــــه:

تتّسم أسرة الشيخ قمار بما يتّسم به السّوسيّون من علم وصلاح. فوالده السّيّد إبراهيم بن الطّيّب كان من الأتقياء العُبّاد الذين يتورّعون عن صغائر الأمور قبل كبائرها. ويقدّم لنا الشيخ قمار نموذجا عن ورع والده وصلاحه، فيحدّثنا عن بعض كراماته ويُخبِر أنّه كان يملك معصرة زيت، فإذا جاء موسم عصر الزّيتون كان يشترط على جميع العمّال أن لا يدخلوا المعصرة إلاّ على وضوء، وأن لا يتكلّموا إلاّ بذكر الله وبالصّلاة على رسوله صلّى الله عليه وسلّم. وكان يتّخذ خلوة في هذه المعصرة ولا يشتغل إلاّ بذكر الله. فكان زيتونه يُنتج من الزّيت أضعاف ما يُنتجه غيرُه من الزّيت ببركة نية هذا الرّجل وصلاحه، فيطلب من أهل القرية أن يُحضروا أواني الزّيت فيملؤونها حتّى لا تبقى آنية فارغة، وعندها ينتهي الزّيت. وكذلك الأمر عند جني العسل فَيَفِيضُ ويَكْثر حتّى تمتلئ آخر آنية أُحضرت.

كما كان عمّه السّيّد سعيد بن الطّيّب من أهل العلم والصّلاح. فكان يلازم المسجد ليجيب عن المسائل الفقهيّة. وقد أجازه الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي في الطريقة التجانية هو وولده أحمد، كما أخبر بذلك الشيخ البعقيلي نفسه[1] ويقول الشيخ قمار: "كانت زوجة عمّي حافظةً لمختصر سيدي خليل بالشّلحة، وكانت تُدرّسه للنّساء وهنّ يعملن كلّ

[1] – كتب بذلك إلى الشّيخ محمد قمار بتونس في رسالة بتاريخ أواخر صفر عام 1355هـ/1936م. انظر الوثيقة رقم 3.

واحدة في حرفتها، التي تغزل الصّوف والتي تطحن القمح، وذلك كلّ يوم". كما أخبرنا أنهن كنّ عالمات بمسائل فقه النساء ولا يحتجن في ذلك إلى سؤال الرجال عنها، وكن يترفهن بإنشاد المدائح النبوية بترديد بردة البوصيري وهمزيته بخلاف المألوف عند العوامّ من النساء من التسلي بالغيبة.

ولادته ونشأته:

تشير الوثائق الرّسميّة أنّ ولادة الشيخ قمار كانت في مستهلّ القرن العشرين. غير أنّ الشيخ كثيرا ما يشير أنّه وُلِد قبل هذا التّاريخ بسنتين، وأنّ التّاريخ المذكور كان تاريخ التّصريح بالازدياد لا تاريخ الازدياد. ومن هذه المعطيات نستنتج أنّ تاريخ الازدياد الحقيقيّ للشّيخ سيّدي محمد بن إبراهيم بن الطيّب القماري كان سنة 1316هـ/1898م.

لمّا بلغ الشيخ قمار سنّ الخامسة دفعه والده إلى الكتّاب، على عادة السّوسيّين[1].

ولم يبلغ السنة الثانية عشر من عمره حتى حفظ القرآن كلّه وبعض المتون كمتن "ابن عاشر في الفقه المالكي". ثمّ صار يدرّس القرآن في

---

[1] – جرت عادة السّوسيّين أن يدفعوا أبناءهم إلى الكتّاب في سنّ مبكّرة، تحديدا خمس سنوات وخمسة أشهر وخمسة أيّام. السوسي: المعسول،223/3.
وقد يكون ذلك تيمّنا بعدد الصلوات الخمس.

الكتاتيب على النّحو السّائد في ذلك الوقت[1]. وذلك يعني أنّه أتمّ حفظ القرآن في سنة 1328هـ/1910م.

انتماؤه إلى الطريقة التجانية:

كانت الطريقة التجانية من آخر الطرق الصّوفيّة التي ظهرت في سوس على يد جملة من العلماء من أشهرهم الشيخ سيّدي الحسين اليفرني[2]. وكانت وفاة هذا العَلَم في سنة 1910م، أي في نفس السنة التي أتمّ فيها الشيخ قمار حفظ القرآن، فتكون نشأة الشيخ قمار في سنواته الأولى قد تزامنت مع انتشار الطريقة التجانية في إقليم سوس. ورغم أنّ هذه الطريقة حديثةُ الدخول إلى هذا الإقليم إلاّ أنّها كانت تحظى بالاحترام والتبجيل، لأنّ شيوخها السّوسيّين من العلماء الذين يُشَدُّ إليهم الرّحالُ للتعلّم وحلّ النوازل على غرار الشيخ سيّدي الحسين اليفرني. فلم يتردّد الشيخ قمار في الاندراج في سلك الطريقة التّجانيّة، فشدّ الرحال إلى المقدّم سيّدي أحمد بن محمد أوترضي في قرية حاحا

---

[1] –العمدوني (جلال)، الطريقة التجانية في تونس، بحث لنيل شهادة الدّراسات المعمّقة في الحضارة الإسلاميّة، إشراف عبد القادر قحّة، جامعة الزّيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدّين (1997–1998 ص4).

[2] –الحسين بن أحمد بن بلقاسم اليفرني (1248هـ–1322هـ/1832م–1910م): آلت له مشيخة الطريقة التجانية في زمنه، اشتهر بتمكّنه من العلوم الشّرعيّة فقها وحديثا وتفسيرا. كان من الذين يُشدّ لهم الرّحال للإفتاء في النّوازل: السّوسي: المعسول، 26/4–82.

قرب تزنيت[1]، وعمره وقتها ثلاثة عشر سنة. فيكون قد أخذ الطريقة التجانية سنة 1911م/1329-1330هـ إثر تخرّجه من الكُتّاب مباشرة.

بعد التاريخ المتقدّم بسنتين اجتمع الشيخ قمار بالشيخ سيّدي عبد الواحد النّظيفي[2]، وهو واحد من أشهر الشّيوخ التجانيين في سوس وله مصنّفات في الطريقة التجانية من أشهرها كتاب "الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة"، فجدّد عليه بيعة الدخول في الطريقة التجانية مشافهة بنية التبرّك وزيادة نور على نور. ثم بقي الشيخ سيّدي محمد قمار عددا من السّنين متعبّدا لربّه بسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم على منهاج طريقة سيّدي أحمد التّجاني التي ارتضاها لنفسه.

خلال العقد الثاني من القرن العشرين بدأت تصل من شمال المغرب أخبارٌ عن شيخٍ أصبحت شهرته تتّسع في الأوساط التجانية في أنحاء المغرب، هو الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي السّوسي. وكانت هذه الأخبار التي تناهت إلى مسامع الشيخ سيّدي الحاج محمد قمار من الأهمّيّة بمكان، ممّا جعله يعقد العزم على ملاقاته والأخذ عنه

---

[1] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس، ص 103.

[2] – محمد بن عبد الواحد النّظيفي (1272هـ – 1366هـ/ 1855م-1946م) من مشاهير شيوخ الطريقة التجانية وله فيها مصنّفات، أخذ العلم من مواقع كثيرة وتتلمذ له الكثيرون علما وطريقة: السّوسي: المعسول، 19/137-144.

والتّتلمذ له. فقرّر أن يبدأ هذه العلاقة بزيارة أولى للتعرّف عليه ومعاينة أحواله.

تتلمذه للشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي:

لمّا بلغ الشيخ سيّدي محمد قمار سنّ الخامسة والعشرين، شدّ الرّحال إلى شمال المغرب ويرجّح أن الوجهة كانت إلى مدينة الدار البيضاء إذ الغالب أن الشيخ البعقيلي كان يقيم في هذه المدينة في تلك المرحلة. والشوّاهد على ذلك ما ذكره الشيخ قمار نفسه بأنّه كان يشتغل بالتجارة خلال هذه المدّة وأنه أسّس محلا تجاريّا بالملاح بالدار البيضاء وقد أخذته السلط بعد هجرة الشيخ قمار إلى تونس[1].

رافق الشيخ قمار عددا من الفقراء التجانيين بقصد زيارة الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي فمكثوا عند الشيخ البعقيلي أيّاما. ولمّا أتمّوا المقصود من الزّيارة عزموا على الرّحيل، فاستأذنوا الشيخ في الرّحيل والعودة للدّيار، فأذن لهم، ولكنّه استبقى عنده الشّابّ اليافع سيّدي محمد قمار إلى أجل غير مسمّى. لم يكن الشيخ قمار قد استعدّ لمكث طويل، ورغم ذلك استجاب لطلب شيخه دون تردّد أو إمعان نظر.

امتدّت هذه الإقامة خمس سنوات كاملة، لم يخبر الشيخ قمار أنّه قطعها لأيّ سبب من الأسباب. أهمّ ما يخبرنا به الشيخ قمار عن هذه الفترة الحاسمة من حياته، يصبّ في اتّجاه واحد تقريبا وهو ما أفاضه عليه أستاذه البعقيلي من إمدادات باطنيّة وفيوضات عرفانيّة، عبّرت

---

[1] – انظر الوثيقة رقم 2 = الإجازة رقم 2.

عنها سلوكيّات اجتماعيّة خاصّة في العلاقة الثّنائيّة بينهما، والتي كانت تتشكّل في الإثارة من طرف الشيخ والاستجابة من طرف التّلميذ.

مكانته عند شيخه:

منذ بداية اللّقاء بينهما أظهر الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي اهتماما خاصّا بتلميذه الوافد عليه من سوس أرض الأولياء. فكان يصطحبه معه في جلّ الأوقات ويوكل إليه أمور الزّاوية من أذان وتنظيم، ويعتمد عليه في تأسيس الزّوايا في بعض النّواحي مثل زاوية "درب بغلف"[1] وزاوية بني حمد[2]. وكان يوكِل إليه الاهتمام بضيوف الزّاوية ويُنِيبُه عنه في إمامة الصّلاة. وكان يرسل له كلّ سائلٍ عن أمور الدّين من فقه أو طريقة قائلا: "اذهب إلى سي قمار"، بل أصبح يوكِل إليه بعض أمور داره وأسرته. فأوكل له تدريس ابنه البكر السيد محمد الحبيب. ويقول الشيخ قمار عن نجل أستاذه: "كان شديد التعلّق بي، وعنّي أخذ حروف الهجاء"[3]. لقد نزّل الشيخ البعقيلي تلميذه القماري منزلة الابن البكر في المحبّة والتّبجيل. فكان يأخذه إلى بيته ويجلسه بين أهله ويشاركه النّوم في نفس الغرفة، حتّى أنّ الشيخ قمار يقول: "كنت لا أنام حتّى يقول لي سيّدي الأحسن نم قليلا". ويتحدّث الشيخ قمار عن

---

[1] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس، ص 104.

[2] – معلومات شفاهيّة من خليفته الشيخ حبيب بن حامد.

[3] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس، ص 104.

تبجيل شيخه فيقول: "كان سيّدي الأحسن يحبّني محبّة لا توصف، وكان يظهر ذلك بين بقيّة الإخوان حتّى يعتريني الخجل".

كثيرا ما كان الشيخ سيّدي الأحسن يبدي إعجابه بتلميذه القماري وينوّه بمكانته عنده أمام الملإ، فيقول: "إنّ سيّدي قمار من أولياء الله تعالى". ويقول: "إنّ لله رجالا لو أقسموا على الله لأبرّهم"[1] وهو ينظر إلى الشيخ قمار مشيرا له، قاصدا بذلك أنّ هذا الحديث يصدق عليه. وقال عنه بحضوره لبعض الفقراء من زاوية أولاد بوعزّة من مْزاب الشّاوية: "لو ذهبتم إلى فاس فلن تجدوا مثل سيّدي محمد قمار"[2]، ومعلوم أنّ فاس كانت دار العلم ومجمع العلماء والصّالحين، زيادة على ما تحمله من رمزيّة في الطريقة التجانية لأنّها موطنُ الشيخ سيّدي أحمد التّجاني ومدفنُه. فدلّ هذا القول من الشيخ البعقيلي عن ندرة المماثل للشّيخ سيّدي محمد قمار في المكانة والفضل. وقال عنه أيضا لبعض إخوانه أنّ السّيد محمد قمار قد تخطّى مقام رضوان الله الأكبر. كلّ هذه الشّواهد تدلّ وتتّجه إلى نتيجة واحدة هي أنّ الشيخ قمار لم

---

[1] – الحديث في البخاري، قوله صلّى الله عليه وسلّم: "**إنّ من عباد الله، من لو أقسم على الله لأبرّه**": البخاري (محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري، بيت الأفكار الدّوليّة، العربيّة السّعوديّة، 1419هـ / 1998م، كتاب الصّلح، باب الصّلح في الدّية، حيث رقم 2703، ص 104.

[2] – تحدث الشيخ القمار عن نفسه قال كان كل الفقراء يحبّونني باستثناء واحد أو اثنين طلبوا من الشيخ البعقيلي أن يبدّلني بمقدّم آخر فأجابهم بالقولة المذكورة.

يكن مجرّد مريد أو تلميذ ملتزم بتعاليم شيخه، بل كان له شأن خاصّ مع شيخه البعقيلي. وقد تجلّت هذه الخصوصيّة في هذه العلاقة عبر السّنوات التّالية لمرحلة الدّار البيضاء.

في المقابل كان الشيخ سيّدي محمد قمار شديد الالتزام بتوجيهات شيخه البعقيلي فلا يخالفها أبدا، فكلّ ما صدر من شيخه يأخذه مأخذ الجدّ بهمّة وعزم. فكان يتقيّد بحركاته وسكناته فضلا عن أقواله وإشاراته. فكلّما أشار له بأمر، ولو في مسألة بسيطة، إلاّ واعتبر تلك الإشارة أمرا لا تبرأ الذّمّة إلاّ بالإيفاء به ولو سائر العمر. ومن أعجب ما يذكره عن ذلك، أنّ الشيخ سيّدي الأحسن قال له يوما "أنّ ثلاث ساعات من النّوم تكفي الإنسان"، ففهم الشيخ قمار أنّه يقصده وأنّ عليه ترك النّوم وأن يشمّر على ساعد الجدّ في التّوجّه إلى الله بالعبادة وطلب العلم والعمل، فقال: "منذ ذلك الحين لا أنام إلاّ ثلاث ساعات في اليوم واللّيلة، وأزيد أحيانا نصف ساعة في النّهار". ويشهد كلّ من عرفه من قرب، كزوجته وأولاده والخاصّة من تلامذته، أنّه بقي على هذه السّنّة إلى أن لقي ربّه. فالتّتلمذ في عرف الشيخ قمار لا يكون بمجرّد الأخذ عن الشّيخ، ولكنّه يرى أنّ التّلميذ لا يكون تلميذا حقّا إلاّ إذا عزم على التّقيّد بكلام شيخه وعلى اتّباعه في أدقّ التّفاصيل.

وممّا يدلّ على شدّة تعلّق الشيخ قمار بأستاذه البعقيلي واهتمامه به، أنّه كتب عنه مذكّرات خاصّة، ذكر فيها أخبارا كثيرة عنه، وذكر فيها كرامات حصلت للشّيخ البعقيلي لم يُحدّث بها غيرَه. ويقول العديد من تلامذة الشيخ سيّدي محمد قمار في تونس، أنّهم يعرفون أدقّ التّفاصيل

عن شخصيّة الشيخ البعقيلي وعن أسرته لكثرة ما كان يحدّثهم عنه الشيخ قمار.

إنّ هذه السّنوات الخمس التي قضّاها الشيخ قمار في صحبة شيخه البعقيلي، كانت أهمّ مرحلة في حياته حيث أنّها كانت تتويجا لما قبلها. اكتملت فيها شخصيّته الذّوقيّة والعلميّة والتّربويّة، وأصبح مستعدّا للاشتغال بتربية غيره بالمعنى الطّرقيّ لمصطلح التّربية، وكانت أيضا مرجعا لما سيأتي بعدها.

حياة الشيخ قمار في تونس

لم يكن قدوم الشيخ قمار إلى البلاد التونسية أمرا مفاجئا بالنسبة له فهو أمر كان يستشعره منذ صغره فقال "كنت أحسّ أنّ تونس تناديني" وقال أيضا "كثيرا ما كنت أسمع صوتا يناديني اذهب إلى بلاد (الكلاسط) الجوارب" فكان يفهم من العبارة أنّ البلد المعني هو تونس. ولمّا آن أوان الرحيل من الوطن الأوّل إلى الوطن الثاني أخبره أستاذه البعقيلي أنّه يرغب في إرساله إلى مكان ما، فقال له أرسلني حيث تريد، فعانقه ثلاثا ودَعَا له ثمّ طلب منه أن يشدّ الرحال إلى تونس، فاستجاب على الفور ودون تلَكُّئ أو تردّد. فكان دخوله البلاد التونسية سنة (1929م=1348هـ) واستقرّ بعاصمتها إلى أن لاق ربّه سنة (2002م=1423هـ).

إذا تأمّلنا هذه التواريخ وجدنا أنّ مدّة إقامة الشيخ سيدي محمد قمار في تونس بلغت ثلاثا وسبعين سنة تقريبا وهي مدّة طويلة لا تفي هذه الوُرَيْقات في تتبّع كلَّ أطوارها وأحداثها لكنّا سنقدّم أهمّ جوانب حياته خلال هذه الفترة.

شخصيته الاجتماعية:

من الناحية الاجتماعية كانت حياة الشيخ قمار في تونس بسيطة جدا فقد نزل بداية في زاوية باب الخضراء والتي تحوّلت في ما بعد إلى جامع الحمد. واحترف حرفا كثيرة فكان يعول نفسه ويقتات من عمل يده رغم أنّه يقول "كان عندي من المال ما يكفي لشراء حوْمة[1]" ولكنّه كان يرفض أن يكون عاطلا من غير حِرفة أو صنعة.

لم تتحوّل إقامة الشيخ قمار في تونس إلى إقامة قانونية إلا في سنة (1935م=1354هـ) وهي السنة التي أدّى فيها حجّة الإسلام ولعلّ رحلة الحج كانت السبب في لجوئه إلى تقنين إقامته في تونس وتوثيقها لذلك نجد أنّ الوثائق الرسمية تحدّد بداية إقامة الشيخ قمار في تونس منذ سنة توثيق هذه الإقامة أي سنة 1935.

---

[1] – الحومة: اسم مرة من فعل حَامَ، وهي من البحر معظمه، ومن القتال أشدّ موضع فيه: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، وزارة التربية والتعليم مصر، 1994 ص180. والعبارة في اللهجة التونسية تعني ما حام حول المسكن وأحاط به من الدور والبيوت.

توجّه الشيخ قمار إلى مكة لأداء الحج صحبة وفد من الفقراء التجانيين فكان يتكفّل بأغلب نفقات هذا الوفد فقد أخذ معه سبعة وعشرين دينارا ذهبية هي آخر ما بقي له من "اللويز"[1] الذي أحضره معه من المغرب ثلاثة منها تكفي مؤونة شخص واحد في رحلة للحج تدوم سنة كاملة أكلا وتنقّلا وإقامة ذهابا وإيّابا لم يدّخر منها شيئا فقد تصدّق بجميعه في هذه الرحلة ، وقد حصلت له بعض الكرامات في حجّه هذا فعندما أراد أن يزور قبر أمّ المؤمنين السيّدة خديجة رضي الله عنها في مقبرة المعلا بمكّة المكرّمة إذ به يمرّ بأحد القبور فأحسّ وكأنّه تقيّد وتجمّد عند هذا القبر فلم يعد يستطع الحراك ولم يكن يعرف صاحب القبر فسأل المطوِّف عنه فقال له إنّه سيدنا الزبير بن العوّام، قال الشيخ قمار رضي الله عنه وأرضاه فقرأت ودعوت بما تيسّر، فيسّر الله لي مواصلة سيري، وفي المدينة المنوّرة عند زيارته لمقبرة البقيع قال "في باب المقبرة رأيت عموديْن من نور نازليْن من السماء على قبرٍ فعرفت أنّ

[1] ـ اللويز: هي كلمة عامية تطلق على عملة ذهبية.

هذا القبر لا يكون إلا لسيّدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه" وكان الأمر كذلك، لأنّه ذو النّوريْن[1] رضي الله عنه.

بعد العودة من الحج بسنتيْن اشتغل كحارس مبنى إدارة الأطباء سنة1938م=1357هـ وبقي في هذه الوظيفة حتى بعد أن تحوّل إلى دار الصيادلة التونسيين، ثمّ تغيّرت خطة عمله من حارس إلى ساعي مراسلات بين مختلف إدارات هذه المؤسسة في ما بينها وكذلك في ما بين المؤسسة ووزارة الصحة العمومية واستمر عمله بهذه المؤسسة إلى أن تقاعد منها سنة 1980م=1401هـ [2].

---

[1] – ذو النورين: اشتُهر سيّدنا عثمان بن عفّان –رضي الله عنه–بذي النّورين؛ لأنّه تزوّج بابنتَيْ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فجمع النّورين بزواجه منهما، وقد جاء بيان سبب ذلك اللقب في العديد من الآثار المنقولة عن الصّحابة الكِرام رضوان الله عنهم، (قيل للمُهلّب بن صفرة: لم قيل لعثمان بن عفّان ذُو النُّوريْن؟ فقال: لأنّا لا نعلم أحداً أرْسل سِتراً على بِنْتَيْ نَبِيٍّ غَيْرُهُ): عمدة القاري شرح صحيح البخاري، الإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، ضبط وتحقيق عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1 1421هـ–2001م، ص201، ج16.

[2] – EL HAJ des pharmaciens: مجلة الصيدلي التونسي، سبتمبر 1991، عدد41، ص52.

حياته الأُسَريّة:

بقيت حياته مستقرّة على هذه الوتيرة ولم تعرف تغيّرا اجتماعيا إلا في سنة 1371هـ=1951م عندما تزوّج من سيّدة تونسية وهي السيدة جميلة[1] بنت الحسين الغربي فتحوّل بسكناه من زاوية باب الخضراء إلى نهج روما حيث اكترى شقة صغيرة بقي فيها مع أسرته عددا من السنين ثم تحوّل عنها إلى شقة أخرى في باب سويقة اكتراها من البلدية المعنية في ذلك الوقت. وبهذا الزواج تهيّأت له أسباب الاستقرار الاجتماعي لتتقوّى روابطه بالمجتمع التونسي، وقد أثمر هذا الزواج أربعة بنات وولديْن لا يزالون جميعا على قيد الحياة.

فإذا نظرنا له كزوج وأب ومسؤولا عن أسرة وجدناه يتراوح بين الحِلم واللين دون ضعف والشدّة والحزم دون غلظة، وتخبرنا زوجته أنّه كان إذا تعرض منها إلى ما يغضبه كضَمَ غيظه ثم غادر البيت ليعود بعد ذلك بهديّة متبسّما وملاطفا،

[1] – جميلة بنت الحاج الحسين الغربي ولدت سنة 1926م وتزوّجت من الشيخ قمار سنة 1951 أي في سن تناهز 25سنة وكان يفوقها سنّا بما يقارب 27 سنة تقريبا رافقته في بقية مشوار حياته والتحقت به إلى الدّار الآخرة بعد اثني عشرة سنة فلبّت نداء ربّها في غرّة جانفي سنة 2014م.

كما كان ليّنا مع أولاده لا يقسُو عليهم بل يسعى في تأديبهم بالرفق واللِّين ، وكان سخيّا معهم كالريح المرسلة لا يحرمهم من شهوة مباحة في متسعه وكان يبذل جهودا مضاعفة في سبيل ذلك فقد كان العائد النقدي لعمله في دار الصيادلة لا يغطّي نفقات الأسرة فكان يعمل حارسا لبِناية من خمسة طوابق كائنة في ساحة العملة ويخبرنا ابنه الحاج خالد عن ذلك بكل فخر فيقول "كان والدي يقوم بتنظيف المدرج يوميا ويقضي طلبات السكان الفرنسيين والطليان، كل ذلك كفاحا منه ليوفر لنا ظروف حياة متوازنة" وهو يقدّم بذلك المثال التطبيقي عن المثابرة والجدّية ونبذ التواكل والتمعّش من الزوايا.

كل ذلك جعل أولاده يتعلّقون به أيَّما تعلّق حتى أنّ ابنه الحاج خالد يعبّر عن هذا التعلّق فيقول "لا أرى لي فرحة بعده أبدا".

ويتجلّى نجاح الشيخ قمار كأَبٍ لأسرة في التماسك بين أفراد أسرته في حياته وبعد وفاته فهُم يعيشون في تناغم وانسجام مع بعضهم ومع أصهارهم فكانوا مثالا عن الأسرة الناجحة رغم بساطة حياتهم ويعود ذلك إلى ما زوّدهم به والدهم

من قِيم ومبادئ مرّت من خلالهم إلى أصهارهم الذين لا يذكرون الشيخ قمار إلا كما يذكر الولد أباه.

وإذا خرجنا بالناحية الاجتماعية للشيخ قمار من إطار الأسرة إلى ما حوله وجدناه شخصا مميّزا في إنشاء الروابط الاجتماعية القوية وقاعدته في ذلك "لا تُغْضِبْ أَحَدًا" فكان حِلمُه يسبق غضبه وكان لا يغضب إلا لحقّ وإن غضب لا يخرجه غضبه عن أدبه وخلقه، فهو يتألف قلوب الناس بأخلاقه وصبره عليهم وإحسانه لهم. فكان محل تقدير الجميع واحترامهم ولا نتحدث هنا عن التجانيين الذين عرفوه مقدّما أو شيخا مربّيا بل نتحدث عن عموم الناس الذين جمعتهم به حركة الحياة الاجتماعية كجِيران السكن الذين لا يذكرونه إلا بتعظيم، كما يذكره من عرفه في العمل بكل خير فقد تمسّك به أرباب العمل في دار الصيادلة زهاء العشرين عاما بعد بلوغه سن التقاعد حُبّا فيه وتيمّنا بوجوده بينهم ولو بشكل تشريفي فكتبوا عنه في نشرياتهم ووصفوه بالعامل المثالي

والمتحمّس لعمله[1] وقد نعاه جميع المنتسبين إلى دار الصيادلة في مجلّتهم الخاصة عندما وافته المنية.

نفس الانطباع عنه وجدناه عند من عرفه في جامع الزيتونة الذي لزمه سنين ذوات عدد فكان محل إعجاب وتقدير العامة والخاصة من أهل العلم وقد تحدّث عنه مفتي الديار التونسية الشيخ عثمان بطيخ لما سألته عنه[2] فقال "عرفته في جامع الزيتونة في حلقة ذكر الوظيفة التجانية، كان محلّ تقدير الناس وحبّهم وكانوا يحتفون به كثيرا يقبّلون رأسه ويديه" ويضيف الشيخ عثمان قائلا "كان الشيخ قمار آية في التسامح واللّين" ولما سألته عن أخلاقه وسلوكه أجاب "كانت أخلاقه ممتازة – ثم أجمل القول– وأنت تعرف أخلاق الصوفية".

---

[1] – EL HAJ des pharmaciens: مجلّة الصيدلي التونسي، سبتمبر 1991، عدد41، ص52.

[2] – كان هذا الحوار بين الباحث والشيخ عثمان بطيخ في قاعة المحاضرات "ابن خلدون" التابعة للمعهد الأعلى لأصول الدين بجامعة الزيتونة حيث كان الشيخ يشارك في مناقشة رسالة دكتوراه بتاريخ 2010/03/18.

علاقة الشيخ قمار بالتجانية في تونسية:

بدأت علاقة الشيخ قمار بالطريقة التجانية في تونس فور وصوله عاصمة البلاد فقد نزل في الزاوية التجانية بشارع باب الخضراء، وسرعان ما تسلّم مفاتيحها وصار يتولّى أمرها، فكان يقيم فيها ويرعى مصالحها ثم لم يلبث أن أصبح الشخصية المركزية في الزاوية فأصبحت مشورته لا تُردّ ورأيه لا يُخالف خاصة بعد أن أصبح مقدّما بمقتضى الإجازات التي تلقّاها تباعا من أستاذه البعقيلي، رغم ذلك كان شديد الحرص على أن يبدو كواحد من عامة التجانيين.

كانت زاوية باب الخضراء متداعية البناء، ولما لم تعد آمنة على من يرتادها قرر الشيخ قمار غلقها والانتقال عنها، وكان أحد التجانيين التونسيين قد تبرّع بداره الكائنة "بزقاق الحسومي" بنهج باب الخضراء لتصبح زاوية تجانية، فكانت مفتوحة كامل اليوم يأتيها التجانيون للتذاكر في أدبيات الطريقة وأمور الدين زيادة على الوظيفة اليومية. فكان الشيخ سيدي محمد قمار يجتمع بتلامذته فيها ويتولّى شؤون هذه الزاوية في شتّى المجالات بدءًا بالإرشاد والدلالة على الله انتهاء إلى التنظيف وطهْي الطعام.

خلال هذه الفترة طلب الحاج "الحبيب المشري" أحد التجانيين التونسيين من الشيخ قمار أن يسمح له بترميم الزاوية فسلّمه مفاتيحها وأذِن له، فتكفّل بذلك على نفقته الخاصّة. دام ترميم زاوية باب الخضراء سنوات عدّة واستمرّ الشيخ قمار خلالها في زاوية الحسومي.

في أواخر السبعينات من القرن العشرين فتحت زاوية باب الخضراء أبوابها من جديد أمام التجانيين ليعود الشيخ قمار ومن معه إليها، ولكن هذه العودة لم تدم طويلا لينتقل إلى الاجتماع بالفقراء في جامع الزيتونة، خلال هذه الفترة اجتمع بتلامذته في أكثر من مكان لذكر الوظيفة اليوميّة مثل جامع الحلفاوين (بَيْ محمد) وزاوية سيدي إبراهيم الرياحي وغيرها من الأماكن ولكن في كلّ مرّة كان يرِد عليه ما يمنع استقراره في مكان واحد ولعلّ حكمة الله اقتضت تنقّله بحلقة الذكر إلى أماكن عدّة ليتعرّف عليه مزيد من التّجانيين ويربح به مزيد من الخلق، فكان لا يطيب له المقام إلّا في جامع الزيتونة المعمور حيث كانوا يقرؤون الوظيفة اليومية ويقرؤون كتب الطريقة وكان الشيخ قمار يتكفّل بشرح بعض المعاني الواردة في هذه الكتب. استمرت فترة جامع الزيتونة زهاء الثلاثة عشر

سنة ليعود إثرها بصفة نهائية إلى نقطة انطلاقة زاوية باب الخضراء في حدود 1993م والتي ختم فيها مشواره، ولا تزال على ما تركها عليه إلى الآن.

وفاته:

لم يكن رحيل الشيخ قمار أمرا مفاجئا بالنّسبة للكثيرين من تلامذته، فهو حدث كان مسبوقا بمقدّمات كثيرة. ففي الفترة الأخيرة كثر حديثه عن قرب الرحيل فكان يقول "ذلك التعب والقلق اللذان أشعر بهما ليسا من المرض بل أمر آخر فعندما أُصَلّي أتعب كثيرا وأكثر من اللهث تعبا وهذا مع الكبَر من علامة القبر" وكان كثيرا ما يقول لزوجته "اقتربت المنيّة" ولكنّ تلامذته يقولون أنّ أكبر علامة على قرب رحيله كانت إجازته لتلميذه السيد حبيب بن حامد الذي لازمه طويلا ولم يجزه قبل ذلك فكان إجازة مطلقة صرّح له فيها بخلافته عنه ولا يجتمع الخليفة والمستخلف في مكان واحد ومنه استنتج أصحابه قرب رحيله.

كما أنّ الشيخ قمار قد راسل الشيخ محمد الكبير البعقيلي[1] نجل شيخه البعقيلي في الدار البيضاء ومن ضمن ما كتب به له قوله "أصبحت خواطر الخلق تزعجني كثيرا" فقال الشيخ محمد الكبير "هذه آخر تجليّات سيدي محمد قمار" فعلِم سيدي الحاج الحبيب بن حامد أنّ وفاة شيخه القمار باتت وشيكة.

مرّت أيّام قليلة بعد ذلك وبدأت الحالة الصحيّة للشيخ قمار تتراجع بشكل حاد ولكنّه لا يكترث لذلك ويواصل ملازمته للزاوية ويستمر فيما تعوّد عليه من قراءة للكتب ولقاءات وعظ

[1] – الشيخ محمد الكبير بن الشيخ الأحسن البعقيلي (1350هـ=1931م-1437هـ=2016) تحصل على الشهادة الثانويّة من جامع القرويين رحل إلى مصر ثم دمشق طلبا للعلم ثمّ عاد إلى المغرب وانخرط في جامعة محمد الخامس ليتخرّج منا مجازا في الحقوق. أجازه شقيقه الأكبر الشيخ محمد الحبيب البعقيلي إجازة مطلقة في الطريقة التجانيّة وأوصى له بالنيابة المطلقة في توليّ شؤون الزوايا البعقيليّة والإشراف على كلّ من انتسب إليها من التلاميذ والمريدين: وردت علينا هذه المعطيات في رسالة تلقّيْناها من الشيخ محمد الكبير بتاريخ 14 سبتمر 2004. كما نشير إلى أنّ الشيخ محمد الكبير صار له مكانة خاصة في الطريقة التجانيّة على مستوًى عالميٍّ فهو نائب رئيس مجمع الطريقة التجانيّة في فاس ويقصده التجانيون من أصقاع العالم للتعلّم منه واقتناء مصنّفات والده الشيخ الأحسن البعقيلي، وافته المنيّة في 8 من ربيع الآخر 1437 الموافق 18 جانفي 2016 عن سنّ تناهز 85 سنة.

وتعليم فكان آخر اجتماعه بأصحابه يوم الخميس الثامن عشر من شهر أفريل، الخامس من صفر بمنزل ابنته السيدة رقيّة بنهج روما فنحر كبشا وجمع تلامذته وكان موضوع اللقاء فقه الطهارة.

لم يعلم أصحابه حينها مناسبة هذه الوليمة ولكن تبيّن لهم بعدها أنّه كان يودّعهم ويوصيهم بأسس دينهم، بعد هذا اللقاء بثلاثة أيّام أصيب الشيخ قمار بوعكة صحيّة حادّة نقل إثرها إلى مصحّة الشفاء، إثر الفحص قال الأطبّاء إنه مصاب بفشل كلويّ تام ويقول ابنه الحاج خالد "كان أبي يسأل الله: يا ربّ خذ روحي".

المشهد الأخير من حياة الشيخ قمار يصفه لنا خليفته سيدي الحاج الحبيب بن حامد بعد مرور ما يزيد عن ثمانية سنوات بتأثّر شديد كأنّه عاشه في يومه ذاك وننقل هذا النص كما سمعناه منه "وفي اليوم الأخير، طلب منّي سيدي خالد محمد القمار رضي الله عنه أن أقرأ على والده، وأشار إلى سبحته، فقرأت عليه مائة حبّة من "لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ"[1]، وهي لا تردّ عند الشيخ رضي اله عنه، وقلت في

[1] – سورة التوبة، آية 128 – 129.

نفسي: "سينتقل رضي الله عنه عند تمام الحبّة المائة"، وكنت وقتها قابضا على يده رضي الله عنه وأنا أسبّح، فما وصلت إلى آخر الحبّات المائة حتّى رأيت ابيضاض وجهه، ورأيت كيف تخرج الرّوح من الأنف، وكذلك سيدي خالد رضي الله عنه تنبّه لذلك أيضا، وأمّا هو رضي الله عنه ، فقد خرجت روحه في وجهي، رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به آمين، ثمّ نظرت إليه وهو مسجّى فلم يعد هو وإنّما أصبح شخصا آخر".

إذًا قد توفي الشيخ محمد بن إبراهيم بن الطيب القماري بعد عصر يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر صفر الخير سنة 1423 هجرية الموافق للرابع والعشرين من شهر أفريل سنة 2002 ميلادية بمصحّة الشفاء بتونس العاصمة عن سنّ تبلغ المائة وأربع أعوام، ثمّ نُقل جثمانه إلى منزل ابنته السيدة رقيّة بساحة العُمْلَة وقام تلامذته بتجهيزه كما أوْصى، في اليوم التالي نُقل إلى مثواه الأخير بمقبرة الجلّاز ودفن قرب ضريح السيد علّال التجاني حفيد الشيخ سيدي أحمد التجاني، وبذلك يكون الشيخ قمار قد بدأ رحلته في المغرب الأقصى وأنهاها في تونس وبين البداية والنهاية مشوار طويل يعجّ بالحركة والأحداث. وقد تأثّر الكثيرون ممّن عرفوه عن كثب بفقدانه فقد

نعاه المنتسبون إلى دار الصيادلة التونسيّة في مقال خاص، كما حرّكت وفاته قرائح العديدين فكُتبت فيه مرثيات كثيرة، ومن الذين رثوه بتأثر بالغ الشاعر التونسي بن صابر الرياحي الذي رثاه بقصيدة من أحد عشر بيتا هذا نصّها:

أَقــار من شهدت له الأقمـــار	ولـــه تبوح بغيبـــها الأسـرار
لبّيت ربّك في سعيد ندائـــه	والعمر طال ودونه الأعمـــار
في شهر خير فيه فتح أكبـر	قد ساق فيضا غيثه المـــدرار
بحر التجاني أنت سابحه وهل	ساوته في ما قد حواه بحـــار
شيـخ لـه دان المشائخ كلّهـم	هرعوا إليه صغارهم وكبـــار
ذاك المربي ماله من مشبّـــه	الـجهر في منحاه والإضمــار
من مغرب ما مثله في مشـرق	سطعت لمــا بوطابـه أنــوار
جمع الشـريعة والحقيقـة رافعا	في خير بستان به أزهـــــار
منــها جنـــى وردا فاغمـــا	وكسا حما النرجس المعطـار
يا من تمحض للعبادة دهـــره	أكـلا وشربا زاده الأذكــــار
فانـــعم بعلّيين دار مقامـــة	للمتـــقين ونعم تلك الـــدار

كما نعاه الشيخ سيدي محمد الكبير البعقيلي الذي لم يجتمع به ولكن عرفه من خلال تلامذته ومن خلال التواصل الروحي الذي عادة ما يكون قائما بين أهل الله وأوليائه، فكتب

رسالة تأبينيّة للتعزية والوصيّة وممّا جاء في هذه الرسالة قوله "نعي إلي الفقيه الجليل والعالم المحنّك والداعية الحكيم القدوة البركة سلّم العز ومرقى الكمال وحجّة الله في أرضه العارف الناسك التّقي الورع شيخ الإسلام ومقوّم خلق الله في الحال والمآل، السيد الحاج محمد بن إبراهيم الكماري جدّد الله عليه رحماته وأسكنه فسيح جنانه مع من أحبّ من أهل قربه المنعم عليهم من النّبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. اللهم إنّه عبدك وابن عبدك وابن أمتك أسلم قياده إليك وشهد أنّك الله إله في الأرض وفي السماء أخلص عبوديته لألوهيتك وأمحض عبادته إليك وانقاد لربوبيتك أوقف نفسه وحياته لتحبيب خلقك إليك بالإرشاد والدعوة إلى دينك الذي جاء به رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله محبّبا الخالق لمخلوقاته بالحكمة والموعظة الحسنة راجيا أن يهدي

الله على يديه الجم من خلقك اللهم فأكرم نزله وألهمه شهادته وفرحه بالأنس برؤية منزلته في جنّة الخلد في الرفيق الأعلى"[1].

---

[1] - رسالة بتاريخ: يوم الخميس حادي عشر صفر الخير 1423 هجري- 2002/02/25 الحاج محمد الكبير بن الحاج الأحسن البعقيلي الحسني الدار البيضاء – المغرب.

وتاريخ كتابة الرسالة هو نفس تاريخ وفاة الشيخ قمار.

مكانة الشيخ قمار

في الطريقة التجانية

الشيخ سيّدي محمد قمار مربّيا:

كانت علامات النّجابة والفتوّة في الدّين تلوح على الشيخ سيّدي محمد قمار منذ صغره. فكان كلّما تفرّس فيه أحد من أهل الصّلاح والبواطن العالية إلاّ ورأى فيه نورا خاصّا، واستشرف له شأنا عظيما في الدّين والطريقة كالذي حصل له مع المقدّم سيّدي الطيّب بن أحمد السّفياني[1]، الذي نظر إلى الشيخ قمار وقال متعجّبا: "سبحان الله في هذا النّور الذي أعطاكم الله أهل سوس". ولكنّ الشيخ قمار لم يدرك ما أودعه الله فيه من سرٍّ إلاّ بعد اجتماعه بالشيخ سيّدي الأحسن

---

[1] – هو الشيخ الطيّب بن أحمد حفيد الطيّب السّفياني صاحب الشيخ أحمد التجاني وجامع كتاب الإفادة الأحمديّة، وعن الطيّب بن أحمد يقول الشيخ البعقيلي: الشريف الأرْضَى المقدّم البركة نخبة المقدّمين. البعقيلي(الأحسن): إراءة عرائس شموس فلك الحقائق العرفانية بأصابع ماهية التربية بالطريقة التجانية، المطبعة العربية، الدار البيضاء المغرب، 1934م، 185/1

البعقيلي الذي اعتنى به اعتناء خاصّا وقرّبه إليه كما بيّنّا ذلك سابقا، وكان ينوّه بعُلوّ مقامه ويشير إلى ذلك مرارا وتكرارا. ولمّا استأنس الشيخ البعقيلي من تلميذه سيّدي محمد قمار الثّبات والرّسوخ، كشف له عن بداية الطريق التي يسلكها من قدّر له الله إمامةَ الدّين. ويتحدّث الشيخ قمار عن ذلك فيقول: "لمّا ضمّني سيّدي الحاج الأحسن إلى صدره وقال لي: الله يرضى عنك يا ولدي، الله يرضى عنك يا ولدي، الله يرضى عنك يا ولدي، وفي ليلتها أحسست بقلبي يتقلب ويدور ثلاث مرات كالرّحى، ثم أصبح كل شيء عندي مفتوحا منذ ذلك الوقت، ثمّ سألني بعدها سيّدي الأحسن: أثمّة زبدة وحليب؟ فقلت: نعم، ذلك أنّي أصبحت أرى كلّ شيء. فصرت إذا سألني أحد عن أمر، ارتسم ما يجب أن أجيب به في باطني، فأجيبه، ويبقى متحيّرا من أين لي ذلك فيتصوّر لي الحكم وأستطيع أن أجيبه من الظاهر أو الباطن أو باطن الباطن ولا يستطيع أحد أن يعترض لله الحمد، ببركته"، فالشيخ سيّدي الأحسن، باعتباره قطبا متصرّفا في البواطن، قد فتح لتلميذه القماري مسامّ القلب والرّوح والبصيرة، لحكمة يعلمها الله في هذا الرّجل. وهذه الحادثة تعبّر عن الرّحلة الباطنية والروحية

التي سلكها سيّدي محمد قمار، والتي ترمز إلى تغيُّر وجداني روحي يدلّ على أنّ المراد منه ليس أن يكون صالحا في خاصّة نفسه فحسب، بل عليه أن يعتني بغيره ويرشدهم إلى الله. ووجه الاستدلال به على ذلك، أنّ هذا التواصل الباطني مع الآخرين يخوّل لصاحبه النّفاذ إلى أغوار النّفس فيهذّبها بما يقيمها بين يدَي ربّها. ولأنّ هذا التغيّر الروحي هو اكتساب القدرة التي تعطي للعبارة وللقول سلطانا على السامع، فالعبارة لا تكون فاعلة بذاتها، وإنّما بالانفعال الذي يحدثه المربّي في نفس المتلقّي لذلك. فإنّ الشيخ المربّي لا يكلّم إلاّ من كان عنده الاستعداد لقبول ما حصل عند الشيخ المربّي، فيفعل فيه بقوّته الباطنية، فيتجلّي لسامعه بالإخبار ما تجلّى له بطريق الرّؤية والمعاينة[1]، وهو ما صار عليه الشيخ قمار بعد حادثة ضمّ الصدر التي حصلت له مع شيخه البعقيلي.

دخل الشيخ قمار البلاد التونسية سنة 1929م، في سنّ تناهز الواحد والثلاثين سنة، فانضمّ إلى مجموعة التجانيين في

[1] – ابن عربي (محيي الدّين): التجليات الإلهية، تعليقات ابن سودكين، تحقيق محمد عبد الكريم النري، ط1، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 1323هـ/2002م، ص94.

تونس كواحد منهم لا يتميّز عنهم بشيء، يبالغ في إخفاء نفسه، يتبرّم من الظهور والتصدّر، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى تنبّه جمع من إخوانه إلى خصوصيّته. فجعلوا له إجازة في الطريقة التجانية على سند الشيخ سيّدي علي التّماسيني[1] من طريق السّيّد السّائح بن محمد العروسي التّماسيني[2]. ولكنّ الشيخ قمار غضب من ذلك لأنّ الإخوان الفقراء الذين طلبوا له الإذن في الإجازة لم يستشيروه في هذا الأمر ولأنّ طلب التصدّر في الطريق مذموم فكتب إلى شيخه البعقيلي يقول له: "لم أطلب منهم إجازة، ولا حاجة لي بأيّ شيء، وهم تصرّفوا من تلقاء أنفسهم". ولكنّ جواب الشيخ البعقيلي كان على خلاف ما يتوقّع الشيخ قمار. فردّ عليه برسالة أقرّ له فيها ما أجيز به، فكنّاه فيها بـ "الأعزّ الأبرك المقدّم الأبرّ"، ولم يكن الشيخ البعقيلي قد أجازه من قبل. فتكون عبارة المقدّم في

---

[1] – هو الشيخ الإمام علي بن عيسى التماسيني من أشهر أصحاب الشيخ أحمد التّجاني. انظر: سكيرج (أحمد): كشف الحجاب، المكتبة الشعبية، بيروت لبنان 1404هـ/1988م ص 126-130.

[2] – زاوية طرنجة (باب الخضراء) تونس، سلسلة زوايا الطريقة التّجانيّة، عدد 1، الزّاوية التجانية تماسين، شعبان 1430هـ، ص9.

مستهلّ هذه الرسالة إقرارا منه لِمَا أجازه به غيرُه. ثمّ يجيزه فيها في جميع مرويّاته في الطريقة التجانية[1]، فقال له: "فأنتم أولادُ الرّوح، وقد أجزنا لكم في مرويّاتنا في الطريقة وغيره". وكانت هذه الرّسالة في صفر من سنة 1352هـ/1933م[2] أي أنّ الشيخ قمار كان في سنّ الخامسة والثلاثين من عمره، وكان وقتها في تونس. فتكون هذه الإجازة هي التكليف الشرعي لإرشاد الناس وتزكية بواطنهم. وبذلك يكون الشيخ سيّدي محمد قمار مربّيا باعتبار الحال لما له من الأنوار والفتوحات الباطنية، ومربّيا بالفعل بمقتضى هذه الإجازة. ويتحدّث الشيخ سيّدي محمد قمار عن هذا التكليف، فيقول: "أمرني سيّدي الحاج الأحسن أن أدعو، أن آمر الناس وأنهاهم، كان من الأولى أن لا أقول، لكنّ الله غالب على أمره، لأنّ الإنسان لا يدري بعد ذلك لعلّه لا يكون له الإذن". ومقتضى هذا القول، في رأي خليفته الشيخ سيّدي الحاج الحبيب بن حامد "أمرني ونصّبني، أي أمرني ونصّبني في إجازتي أن أقول للناس:

---

[1] – أي مرويات سيدي الأحسن وهو ما رواه هو في الطريقة أو في غيرها من جميع ما ذكره ورواه فأذن فيه لسيدي الحاج القمار أن يعيد روايته نيابة عنه.

[2] – انظر الوثيقة رقم 1= الإجازة رقم1.

افعل ولا تفعل. وأمرني أن أعلّمهم ممّا علّمني، أي أمرني في إجازتي بقوله: أرشِد الناس وبلّغهم وعلّمهم وربّيهم، أي أمرني أن أفعل، وها أنّي أفعل امتثالا لأمره، وكأنّ لسان حال سيّدي الحاج القمار رضي الله عنه يقول: أنا لا أقول ذلك من تلقاء نفسي، ومن أنا حتى أقول للناس افعلوا ولا تفعلوا، وإنّما صدر فيَّ أمرٌ بالتكليف أن افْعَلْ ولا تَفْعَلْ، بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. فأنا أقول امتثالا وتسبُّبًا لما أُمِرتُ وما كُلِّفتُ به. وأمّا فعل الهداية فمن الله، أي أنّ خلق الهداية من الله وليس منّي. والعارف فوق ما يقول، فإذا قال: أنا مربٍّ، فاعلم أنّه أكبرُ من ذلك بكثير[1]".

ثمّ توالت إجازات الشيخ البعقيلي لتلميذه الشيخ قمار لدعم الإجازة الأولى ولإقرار ترقياته في مقامات الطريقة التجانية. فكانت إجازات خمس، يوسّع له في إطلاقه في كل مرّة.

الشيخ سيدي محمد قمار قطبا:

للبحث في هذه التّرقيات التي مرّ بها الشيخ قمار، ننطلق من مسلّمتين اثنتين:

---

[1] – من كلام الشّيخ سيّدي الحاج الحبيب بن حامد.

- **المُسَلَّمَةُ الأولى:** وجود هذه المراتب حسب ما نصّ عليه أربابُ الطرق الصوفية وشيوخُها شرحا وتفريعا، لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فعنه أنّه قال: "قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّ لله عزَّ وجلّ في الخلق ثلاثمائةٍ قلوبُهم على قلب آدم عليه السلام، ولله في الخلق أربعون قلوبُهم على قلب موسى عليه السلام، ولله في الخلق سبعةٌ قلوبُهم على قلب إبراهيم عليه السلام، ولله في الخلق خمسةٌ قلوبُهم على قلب جبريل عليه السلام، ولله في الخلق ثلاثةٌ قلوبُهم على قلب ميكائيل عليه السلام، ولله في الخلق واحدٌ قلبُه على قلب إسرافيل عليه السلام. فإذا مات الواحدُ أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة. فبِهم يُحيي ويُميت ويُمطر ويُنبت ويدفع

البلاء"[1]. وقد جمع الشيخ العربي بن السائح[2] في كتاب البُغْية، أقوالَ شيوخِ الطرق وأربابِ التصوّف التي يَعْضُد بعضُها بعضا لتجعل من هذه التصنيفات كالمُسلَّمات عند أصحاب الطرق[3].

- **المسلّمة الثانية:** أنّ الشيخ سيّدي الأحسن بن أبي جماعة البعقيلي كان قطبا فردا جامعا، وهو أمر دلّت عليه قرائن عدة منها ما رواه عنه الشيخ سيدي محمد قمار أنّه قال أنا الاسم الأعظم بذاتي وقال له أيضا أعطيت مفاتيح وعكاز القطبانية العظمى وله كذلك شواهد كثيرة من أفعاله وأقواله يضيق المقام عن حصرها لكثرتها، منها قوله في إحدى رسائله إلى أحد كبار المقدّمين بسوس، الحاج علي بن أحمد الأساكي: "وإنّا لكُم ولحقائق ذرّات المقدور روح ورحمة ونور وبرد وسلام

---

[1] – السّيوطي (جلال الدّين): الحاوي للفتاوى، فتوى الخبر الدالّ على وجود القطب والأوتاد والنّجباء والأبدال، 463/2.

[2] – هو الشّيخ محمد العربي بن السائح الشرقي العمري المتوفّى سنة 1309هـ/1891م من كبار شيوخ الطريقة التجانية، محدث وفقيه له مصنّفات عدة أشهرها كتاب البُغية، دفن في زاويته بالرباط: انظر سكيرج المصدر السابق ص 313-328.

[3] – السّائح (العربي): بُغية المستفيد لشرح مُنية المريد: تحقيق حمود عقيل، دار الجيل، ط2، بيروت 1426هـ=2005م.ص 63-75.

وسرور كالماء في الأغصان والثمرات، وأنّ الكون كاليتيم في حجر قرّة أعينكم"[1]. ويقصد نفسه بالعبارة الأخيرة، وهذا الوصف الذي وصف به نفسه فيه مطابقة تامّة لما عرّف به الشيخ سيّدي أحمد التّجاني القطب الجامع، حيث يقول عن القطب الجامع: "ثمّ قيامه في الوجود بروحانيته في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود جملة وتفصيلا، فترى الكون كلّه أشباحا لا حركة لها، وإنّما هو الرّوح القائم فيها جملة وتفصيلا، وقيامه فيها في أرواحها وأشباحها"[2]. وهو تعريف يقرّه غيرُه من العارفين الذين أنزلهم الله هذا المنزلَ.

اعتمادا على هاتين المسلّمتين، يمكننا أن نتناول الإشاراتِ التي كان يراسل بها الشيخ البعقيلي تلميذَه سيّدي محمد قمار وكذلك تعليقاتِ الشيخ قمار نفسه على هذه الإشارات، لنستنتج ما يدلّ على المراتب والتّرقيات التي تدرّجها الشيخ قمار.

في سنة 1355هـ/1936م تلقّى الشيخ سيّدي قمار إجازة ثانية من الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي، وردت فيها إشارة في

---

[1] – هذه الرّسالة بتاريخ 1360هـ/1941م.

[2] – برّادة (علي حرازم): جواهر المعاني، دار الجيل بيروت د ت، 2/881. انظر أيضا: السائح–البغية، ص187–191.

سياق الكلام، فقال له: "فأنت عضوٌ من أعضائنا، فاجتهد في طلب حضرة الله". وصدورُ هذه العبارة من رجل مثل الشيخ البعقيلي يستوجب التوقّفَ عندها.

لننظر أوّلا ما قاله الشيخ قمار عن هذه العبارة. يخبرنا سيّدي الحاج الحبيب بن حامد خليفةُ الشيخ قمار وتلميذُه الذي صحبه طويلا، عن تفسير هذه الإشارة فيقول: "قال لي الشيخ قمار ما عدد أعضاء الجسد؟ فقلت له سبعةٌ، والمراد أنّ عدد الأقطاب سبعةٌ بعدد أعضاء الجسد". والمقصود من أعضاء الجسد السبعة هي الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان: الوجه والكفّيْن والرّكبتيْن والقدميْن، فمجموعها سبعة مقابل السبعة المذكورين في حديث عبد الله بن مسعود، الذين قلوبُهم على قلب إبراهيم عليه السلام والذين أشار لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث أبي هريرة فعنه أنّه قال: "دخلت على النّبي صلّى الله عليه وسلّم فقال لي: يا أبا هريرة، يدخل علَيّ من هذا الباب السّاعةَ رجلٌ من أحد السبعة الذين يدفع الله عن أهل الأرض بهم. فإذا حبشيّ قد طلع من ذلك الباب، أقرع أجدع على رأسه جرّةٌ من ماء. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أبا هريرة، هو هذا. وقال صلّى الله عليه وسلّم ثلاث

مرّات: مرحبا بيسار. وكان يرشّ المسجد ويكنسه، وكان غلاما للمغيرة بن شُعبة"[1]. والقطب الجامع هو المهيمن على الأقطاب السّبعة، وهم منه بمثابة الأعضاء من الجسد. وقد قيل لأبي يزيد البسطامي[2]: "إنّك من الأبدال السبعة الذين هم أوتادُ الأرض، فقال: أنا كل السبعة"[3]. ومن هنا نقول أنّ القطب الجامع إذا وصف أحدا أنّه عضوٌ من أعضائه دَلّ ذلك على أنّ الموصوفَ واحد من الأقطاب السّبعة. ومن المسلّمة الثانية التي انطلقنا منها، نستنتج أنّ الشيخ البعقيلي عندما وصف الشيخ قمار أنّه عضو من أعضائه، فإنّما قصد الإخبار أنّه قطب من الأقطاب السبعة. فيكون الشيخ قمار قطبا في حياة شيخه وهو لا يزال شابّا في سنّ الثامنة والثلاثين من عمره.

---

[1] – السّيوطي (جلال الدّين): الحاوي للفتاوى، فتوى الخبر الدالّ على وجود القطب والأوتاد والنّجباء والأبدال، 465/2.

[2] – أبو يزيد البسطامي، هو طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي نسبة إلى بسطام بلدة مشهورة، وهو الزّاهد المشهور. له أقوال كثيرة تعبّر عن علوّ مرتبته في طريق القوم. توفّي سنة 271هـ عن سنّ تبلغ ثلاث وسبعين سنة. الذّهبي (شمس الدّين محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النّبلاء، ط2، تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1402هـ/1982م، ترجمة رقم 49، 86/13-89.

[3] – السيوطي: الحاوي للفتاوي ص 472.

توالت العبارات التي يعبّر بها الشيخ البعقيلي عن علوّ تربية تلميذه الشيخ قمار مثل قوله له عندما أرسل يهنّؤه بالحج فبعد عودة الشيخ قمار من رحلة الحج تلقّى رسالة من الشيخ البعقيلي جاء فيها "إنّنا نحمد الله لكم لمّا حججتم وتقدّمتم على أهل التقوى تلقّنون دين الله القويم". العبارة فيها إقرار بتقدم الشيخ قمار رضي الله عنه على أهل التقوى، كما فيها تأكيد على صحّة مرتبته في التقديم، مقدّم وشيخ تربية يعلّم دين الله القويم على بصيرة وله تأهيل كامل في تلك المرتبة.

كما كلّفه بالإرشاد التام في الإجازة التي تلقاها بتاريخ أوائل ربيع الثاني عام 1362، إذ يقول الشيخ الحاج الحبيب بن حامد عن عبارة "الإرشاد التام": "صرّح لي سيدي الحاج محمد القمار رضي الله عنه أنّها تفيد مرتبة الشيخ الكامل في الطريق إذ هو كالكبريت الأحمر وأين من هو هذا وصفه عزّ أن يوجد".

ويليه إجازته له سنة 1362هـ=1942م التي أجازه فيها إجازة مطلقة فقال فيها "وقد أجزنا لكم بكل ما اشتملت عليه إجازاتنا" وقال فيها أيضا "أنتم نور أبصارنا". وفي إجازة أخرى وقد تكون الأخيرة لأنّ تاريخها غير واضح ولكن مضمونها

يوحي بأنّها آخر رسالة تلقّاها الشيخ قمار من أستاذه البعقيلي وردت عبارة تدلّ دلالة قطعية أو قريبة من القطع أنّ مقام القطبانية العظمى ينتقل من الشيخ البعقيلي إلى تلميذه الشيخ قمار هي قوله "ونحنُ إخوةٌ ذاتٌ واحدةٌ" ولأهمّية هذه العبارة فإنّ الشيخ قمار يشرح دلالتها فيقول "كنت أقرأ كتب سيدي الأحسن حتى أرى ما عندي في قلبي هل هو نفسه أم لا، أمّا الآن فتبارك الله، فأنا أعايِنُ ذلك المقام "نحنُ إخوةٌ ذاتٌ واحدةٌ"، فعلاً نحن ذات واحدة، فالقطب إذا انتقل فقبل أن يموت يعطيها لواحد آخر وهكذا... السر كلّه في تلك اللفظة "نحنُ إخوةٌ ذاتٌ واحدةٌ". وكلام الشيح قمار في هذا السياق كأنّه تصريح بأنّه وَرَثَ مقام القطبانية العظمى من شيخه البعقيلي، وهو ما تؤكّده إشارات كثيرة تعاقبت خلال السنوات التي عاشها الشيخ سيدي محمد قمار بعد وفاة شيخه البعقيلي، من هذه الإشارات مقارنته بين ما كان عليه أيّام شبابه وما صار إليه أمره فيقول: "**منذ صغري إذا كلّمني أحد فقَبْل أن يتمّ كلامه أرى الجواب من باطن الباطن وليس من الظاهر فقط فما بالك الآن، ونحن هكذا فهؤلاء العارفون لم يعد عندهم رائحة أو أقلّ قليل من البشرية ناهيك أنّ القطب هو الاسم الكبير**".هـ من كلامه

نلاحظ تدرّجه رضي الله عنه في كلامه من الفتح الباطني إلى المعرفة إلى القطبانية، كما أنّه عندما تكلّم عن القطبانية تكلّم بعبارة تعميمية وهو لا يقصد إلا نفسه وإنّما تكلّم بشكل عام تورية وتستّرا على عادته في إخفاء نفسه. هناك أيضا إشارة أخرى على قدر كبير من الرمزية والدّلالة فقد كتب الشيخ قمار بخط يده "**أُذن لي أن أجدّد الطريقة لجميع الأرواح وذلك ليلة الخامس عشر ذو الحجة 1368هـ**". وهو العام الذي انتقل فيه شيخه القطب البعقيلي رضي الله عنهما.

وعن كيفية تجديد الطريقة كتب الشيخ قمار بخط يده "**الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد أنّني بحمد الله كل يوم أجدّد الدين لكل من اعترف بربوبيته جلّ وعلا، وأقرّ بنبوّته ورسالته صلّى الله عليه وسلم، في كل صباح أقول: اللّهم إنّي أشهدك وأنبيائك ورسلك وملائكتك بأنّني أجدّد الإسلام لجميع المسلمين، أقول اللّهم إنّي أجدّد الإسلام لجميع الموحّدين من أمّة سيّدنا محمّد لي ولهم، أقوله كلّ يوم ثلاثة بعد صلاة الصّبح، وكذلك الطريقة بعد صلاة الصّبح، أقول اللّهم إنّي أجدّد الطريقة التجانية لكلّ من قبل شروطها المقرّرة في جواهر المعاني والإراءة وبغية**

المستفيد، وكما أنّي أهدي ثواب صلاة الفاتح لجميع ما خلقه الله خمسة عشر مرّة في كلّ يوم بعد صلاة الصبح أيضا، وأقول لكلّ مؤمن إنّ أجل الله قريب، والسلام، محمد بن إبراهيم".

يقول الشيخ الحاج الحبيب بن حامد في هذا السياق المتقدم: "فإنّني أذكر أنّه قال: "**بقولي لهم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ سيّدنا محمد رسول الله**". وقال لي رضي الله عنه: "**فأرى جميع المسلمين يدخلون في قلبي، ثم قال وأنا كذلك أدخل معهم في قلبي**"، وكأنّه يدخل آخرهم وهو لم يصرّح به ولكن فهمت أنّه يدخلهم جميعا ثمّ يدخل معهم".

كما قال لي رضي الله عنه: "كأنّني أنا أيضا سمعتهم يقولون لي أنت القطب أنت القطب ..."، ثم يمسك فلا يزيد أكثر من هذا.

تمثّل الشيخ قمار للفكر البعقيلي

من المهمّ أن نشير إلى أنّ التلازم بين النظري والتطبيقي يبعث الرّوحَ في ما هو فكري، فينزّله من عالم الخيال النظري إلى الواقع المَعيش، ليكون قابلا للتطبيق، فاعلا في الجانب العملي الاجتماعي من حياة الإنسان، والعارف لا يُسمّى عارفا حتى يكون دالاًّ على الله بحاله وأفعاله، قبل مقاله. لذلك كان من الأهمّية بمكان أن نبحث في مدى تمثُّل الشيخ قمار لأفكار أستاذه البعقيلي وتصوّراته وعمله بها، سواء في خاصّة نفسه أو في ثنايا تجديده للطريقة التجانية في تونس، "وذلك لأنّ العِلم يُدرَك بالبصائر، والعملُ يُدرَك بالأبصار، وأربابُ الأبصار أكثر"[1]، لأنّ المربّي الدالّ على الله مَثَلُهُ كمثل عين الماء في تدفُّقٍ مستمرٍّ مطالبٌ بأن يكون نفّاعا لكلّ من احتكّ به. فلا ينتظر وقتَ الدّرس ليقول موعظتَه أو نصيحتَه، بل

---

[1] – نقلا عن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي: الفيش (أحمد علي): أصول التّربية، ط5، الدّار العربيّة للكتاب ليبيا–تونس، 1985م ص1196.

تكون الموعظة والنصيحة كامنة في سلوكه وتصرّفاته. وهكذا كان سيّدي محمد قمار أبدا وجهةً لله لا تغفلُ ووجهةً للخلق لا تفترُ، ولا تشغله وجهةٌ عن وجهةٍ. فمن عرفه بصفته انتفع منه بالوجه الخاصّ، ومن لم يعرفه انتفع به بفضل ما يعاينه فيه من إقبالٍ على الله ومثاليةٍ في الخُلُق والسّلوك. وسنتناول في هذا العنصر التزام الشيخ قمار بالتعليمات البعقيلية في خاصّة نفسه أوّلا، ثمّ نتناول في العناصر اللاحقة التزامَه بها في تجديده للطريقة التجانية في تونس.

بيّنّا سابقا أنّ حجر الأساس في الفكر البعقيلي هو عبادة الله وفق منهج الطريقة الأولى، وهي نهج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. "فرجال الطريقة الأولى يُجرَّدون من أوّل وهلة، فلا يدُلّون على غير الله. ورأوا الرياضة من أكبر الدواهي التي نزلت بالناس، حيث لم يَدُلُّوا على ما دلّ عليه الشارع صلّى الله عليه وسلّم. – فمن لم تصلحه السُّنّة لا أصلحه الله– فالسُّنّة تدلّ على الله وتُجرِّد ممّا سواه"[1]. وقد بالغ الشيخ البعقيلي في التّأكيد على مبدإ اتّباع السُّنَّة بالنسبة لطالب المعرفة بالله، لأنّ "طريق الصفاء لا يُتَصوّر وجودُها عقلا ولا شرعا ولا طبعا ولا

[1] – البعقيلي: الإراءة، 124.

عادة إلا باتباع السُّنّة المطهّرة، لأنّها سياسةُ الحق أنزلها على نبيّه ليعرف كلُّ أحد بمَ يعامل ربَّه المالكَ له، وكيف يعامل نفسه، وكيف يعامل أجناس الخلائق"[1]. بلغ اقتناعُ الشيخ قمار بهذا المبدأ إلى درجة أنّه كان يتقيّد بالسُّنّة النبوية في التفاصيل الحياتية البسيطة، فضلا عن المسائل العميقة والدقيقة. فكان سُنِّيَّ الهيأة من لباسٍ ولحيةٍ وعِمامةٍ وتقديمٍ للميامن، فلا يذكر أحدٌ من تلامذته أنّه رآه مكشوفَ الرّأس، لا في زاوية ولا في مسجد، إلا نادرا عند اشتداد الحر، فكان شديدَ التمسّك بالسُّنّة في عباداته فلا يترك الرّواتب، شديدَ المحافظة على صلاة الضُّحى وصلاة القيام، لا يؤدّي الفرائض إلاّ في جماعة غالبا، فقال عنه أحد روّاد جامع "سبحان الله" بحي "باب سويقة": لم تَفُتْهُ صلاة الصبح جماعةً طيلة خمسين عاما.

وقد حافظ على الجماعة في الذِّكر والصّلاة إلى آخر أيّام حياته رغم أنّه بلغ من العمر مائةً وأربعَ سنوات. كان دائم المحافظة على الوضوء، فإذا نام الناس كان نومه إغفاءً، ولا ينام مضطجعا بل متّكئا على الأريكة أو مسندا ظهره إلى الحائط فكلّما انتبه من غفوة إلاّ استأنف وضوءًا جديدًا، يعيد

---

[1] – البعقيلي: الإراءة،71/1.

ذلك مرارا وتكرارا في الليلة الواحدة إلى مطلع الفجر، يبيت جاليا ذاكرا ومسبّحا، كما أخبر بذلك كلٌّ من شاركه النوم في ذات الغرفة من تلامذته أو أولاده.

إجمالاً كانت السُّنّةُ النبوية بالنسبة للشيخ قمار، حالاً في حركاته وسكناته، واستقصاءُ ذلك يؤدّي إلى الإطالة. أمّا من الجانب العلائقي، فقد كانت علاقته بالآخرين تتشكّل وفق الضوابط السُّنّية من أمانةٍ ولِينٍ وحِلمٍ وصبرٍ وتجاوُزٍ عن زلاّت الآخرين، إلى غير ذلك من أخلاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا فيما يتعلّق باعتباره تجانيا في خطّة الإرشاد والتربية بالطريقة التجانية، فإنّ القاعدة البعقيلية التي كان يرتكز عليها الشيخ قمار، هي مقولةٌ للشيخ سيدي الأحسن البعقيلي عن كتابه الإراءة: "فقد أنهيت الشيوخ إلى ثلاثة عشر شيخا في الإراءة فطالعها، فإنّها قاموس الطريقة والطرق كلّها"[1]. ومنها يأتي التزام الشيخ قمار بكلّ ما سطّره أستاذه البعقيلي في كتاب الإراءة عن المريد التّجاني. فكان يبدأ بنفسه باعتباره مريدا في الطريقة التجانية، فيتقيّد بكل ما يراه الشيخ البعقيلي واجبا أو

---

[1] – البعقيلي (الأحسن): الشرب الصافي في الكرم الكافي، المطبعة العربية، الدار البيضاء المغرب، 1934م، 1/ 71.

مندوبا في المريد التّجاني، من ذلك تقصير الهمّة على الشيخ المربّي. فعلى المريد" قطع العلائقِ كلِّها من غيره كما تقطع المرأة الحرّة العلائقَ من غير زوجها، فقصده تاركًا لغيره مصلّيًا على غيره صلاة الجنازة متوجّهًا بكلّيته إليه"[1]. ورأينا سابقا شدّة تعلّق الشيخ قمار بأستاذه البعقيلي، فلكثرة ما كان يتحدّث عنه، صار التونسيون من تلامذة الشيخ قمار يعرفون عن الشيخ البعقيلي أدقّ تفاصيل حياته، فضلا عن آرائه المسطّرة في كتبه. كذلك فيما يجب أن يكون عليه المريد من ثباتٍ حالة الذِّكر وحده أو في جماعة فيقول الشيخ البعقيلي: "فلا يحرّك رأسه ولا أطرافه إظهارا للحلاوة، فإنّه ضعف عقل بل يكون كجبالٍ تراها "**جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**"[2] وهي قلوبهم"[3]. فكنتَ ترى الشيخ قمار حالةَ الذكر وقد جلس جلوسَ التّشهُّد وأطْرَقَ لا يحرّك ساكنا، فلا يهزّ رأسًا ولا يدًا، وينهر من يفعل ذلك إلى أن تنتهي الوظيفة. وإذا جلس لقراءة وِرده، استقبل القبلة وانقطع إلى ذكره وكأنّ الدنيا قد خلت من حوله. بنفس

---

[1] – البعقيلي (الأحسن): الإراءة، 79/1.

[2] – النّمل: آية 88.

[3] – البعقيلي (الأحسن): الإراءة، 83/2.

الحزم يتناول الشيخ قمار مسألة تعمير الزاوية بالذاكرين التي يقول عنها الشيخ البعقيلي: "وحافظ على الزاوية فإنّ العمل في الزاوية التي دُفِن فيها الشيخ رضي الله عنه مقبولٌ قطعًا وفي غيرها كما حقّقه العارفون في الطريقة كذلك"[1]، "فمن تخلّف عن الزاوية مع وجودها تخلّف عن مركوبه"[2]. فكان الشيخ قمار لا يتخلّف عن الزاوية تقريبا إلى آخر حياته، ويحثّ غيره على إتيانها ولو بشكل دوريّ عند وجود الأعذار، ولا يقبل من غيره أن يذكر الأذكار الجماعية كالوظيفة وهيللة يوم الجمعة منفردا مع وجود الجماعة، استنادا إلى قول أستاذه البعقيلي أنّ الجماعة فيهما شرط "وإن تركه عمدا فهل تجزؤُه أم لا؟ قولان: الأحْوَط عدم الإجزاء، والإجزاء مع العصيان وهو متهاون"[3].

أمّا بالنسبة لما قرّره الشيخ البعقيلي عن شروط المقدّم المربّي، فمنها ما يتعلّق بالوجدان والنّيات وهو أمر خارج عن دائرة البحث والملاحظة، ومنها ما يتعلّق بالسّلوك والتصرفات وهو محلّ البحث لأنّه قابلٌ للمقارنة والتّقييم. كما أنّ هذا

---

[1]– البعقيلي: الإراءة، 84/1.

[2] – البعقيلي (الأحسن): الإراءة، 85/2

[3] – البعقيلي (الأحسن): الإراءة، 66/2.

الجانب القابل للبحث عادةً ما يكون انعكاسا للجانب الباطنيّ الوجدانيّ، فيكون مقياسًا له على قاعدة "قياسِ الغائبِ على الشّاهدِ"، لذلك نقتصر في بحثنا عن مدى تمثُّل الشيخ قمار باعتباره شيخا مربّيا، للشّروط البعقيليّة المتعلّقة بشيخ التربية على الجانب السلوكي المُبْصَرَ فقط.

يشترط الشيخ البعقيلي في المقدّم "خفض الجانب ومشاورة أهل الرّأي وعدم الفظاظة والغلظة"[1]. وهذا الشرط لم يكن حالاً يغيبُ ويحضرُ عند الشيخ قمار، بل كان مَقامًا لا ينفكُّ عنه. فكان هشًّا بشًّا، ليّنَ العريكة، كثيرَ الملاطفة للإخوان، يغلبُ عليه الأنسُ والجمالُ، لا يحبّ العزلةَ ولا يطلبها حتى لا يكون بينه وبين أصحابه حاجز يعوق تواصله بهم، كما كان كثير المشاورة لأصحابه، لا يعقد العزم على أمر حتى يرى رأيهم فيه، ثمّ يعمل بمشورتهم وإن كانت خلافَ رغبته. وإن اتّفق مَنْ حوله على أمر لم يعمل إلاّ به. وممّا يشترطه الشيخ البعقيلي في علاقة المربّي بتلامذته، أن "يجود بنفسه وماله وينزع الطمع ممّا في أيديهم"[2]، وهو عينُ ما كان عليه الشيخ قمار. فقد

---

[1] – البعقيلي: الإراءة 151/1.

[2] – البعقيلي: الإراءة 151/1.

قضى حياته كلّها في خدمة الطريقة التجانية وفي خدمة أهلها، مكرّسا كل جهوده في هذا الأمر، لا يدّخر فيه جهدا ولا مالا. ففي أيام عافيته كان يقوم بخدمة الزاوية وروّادها بنفسه، يجود على الضعفاء من أصحابه بما ساقه الله إليه من رزق. لم يكن يتشوّف إلى ما في أيدي تلامذته من رزق زاد أو قلّ، بل كان يعدّ الزهد ممّا في أيدي الناس من علامات الفتوّة والرجولة في الطريقة[1]. وممّا أوجبه الشيخ البعقيلي في المقدّم المربّي، التّبرّي من دعوى الرئاسة في الدّين "وهو عين التربية بالطريقة التجانية وهو أن ينسب كل ما عنده لشيخه ليتبرّأ من عهدةِ الدّعوى والتظاهرِ بالمشيخة، فإنّه ممنوع فيها[2]". وقد التزم الشيخ قمار بهذا الشرط إلى أن فارق الحياة، فكان لا يحبّ لقب الشيخ ويقول: "ما ثمّة شيخ إلاّ الشيخ سيّدي أحمد التّجاني". وكان يغضب من مبالغة تلامذته في تعظيمه كأن يصطفّوا أمامه للسلام عليه فيقوم في بعض الأحيان بزجرهم عن ذلك، وفي

---

[1] – جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ دُلَّني علَى عمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ أحبَّني اللَّهُ وأحبَّني النَّاسُ فقالَ ازهَدْ في الدُّنيا يحبُّكَ اللَّهُ وازهَدْ فيما عندَ النَّاسِ يحبُّكَ النَّاسُ. أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الأصفهاني): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر بيروت لبنان 1416هـ=1997م، 253/3.

[2] – الإراءة: 144/1–145

بعض الأحيان يعذرهم ويقول: "يظنّون أنّي أفضل منهم، يقولون رجل طاعن في السنّ لابد أنّه رجل صالح". فعاش في جلباب التلميذ ومات فيه عملا بقاعدة التّبرّي من المشيخة رغم أنّه بلغ سنام مراتب الشيوخ.

إجمالا كان الشيخ قمار يتقيّد بكل عبارة في مصنّفات شيخه البعقيلي كأنّما أمره بها مشافهة وليست عبارة من مصنّف، ويعبّر عن شدّة تمسّكه بآداب الطريقة التجانية وبمنهجها المقرّر في كتاب الإراءة. فكثيرا ما يقول: "كتابي الإراءة"، يعني أنّه يعتبره دستوره الخاص. فلم يتوقّف عن قراءته منذ أن تلقّاه من أستاذه إلى أن توفّاه الله. فكان مثالا في الالتزام بتقريرات الشيخ البعقيلي وإشاراته، حتى أنّ تلامذته يقولون: كنّا نبحث عن شخص تجتمع فيه شروط المقدّم المربّي المقرّرة في كتاب الإراءة، فلا نجد من أحاط بها وأتقنها إلا الشيخ سيدي محمد قمار. وقد وصفه خليفته سيّدي الحاج الحبيب بن حامد بأنّه "الإراءة تمشي على قدميها" كما كان سيدي علال[1] حفيد الشيخ سيدي أحمد التجاني دفين الزلاج

---

[1] – علال بن سيدي امحمد البودالي بن سيدي علال بن سيدي أحمد عمار بن سيدي محمد الحبيب بن مولانا أحمد التجاني رضي الله عنه. هو شقيق خليفة عين

يقول له: "إذا أتيتك فكأنّي أتيت إلى الحاج الأحسن البعقيلي لا فرق".

ماضي الرّاحل الشيخ عبد الجبار، كان الشريف علال التجاني ممن اجتمعوا بالشيخ البعقيلي وقد أجازه الشيخ البعقيلي في الطريقة التجانية، نزل تونس واستقرّ بها وكانت تربطه بالشيخ قمار علاقة متينة، توفي الشريف علال في تونس ودفن بمقبرة الجلاز وتفيد وثائق الحالة المدنيّة أنّ المذكور توفي في غرّة سبتمبر من سنة 1960 وعمره 38 سنة وكان أعزبا. انظر الوثيقة رقم 6.

مَظَاهِرُ التّجريد القماري

في تونس

عرفت الطريقة التجانية في تونس زمن الشيخ سيدي إبراهيم الرّياحي ازدهارا كبيرا وانتشارا واسعا، فانتسب إليها العلماء والسّاسة والعامّة على حدّ السّواء. لكن مع بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، بدأ مدُّ الطريقة التجانية يتراجع في تونس. فقد أثبتت الإحصائيّات الفرنسية أنّ عددَ التجانيين تراجع من أربعين ألف منتمٍ سنة 1891م إلى 16094 سنة 1925م[1] وقد استمرّ هذا التراجع الحادّ في عدد الأَتْبَاع، فأُغلقت جلُّ الزوايا الموزّعة داخل البلاد وأصبح عدد التجانيين يُعدُّ بالأنفار بعد ما كان يُعدُّ بالآلاف[2].

---

[1] العجيلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسيّة، منشورات كليّة الآداب بمنّوبة، تونس 1992م. ص:45.

[2] - يمكن أن نرجع أسباب هذا التراجع إلى سياسة التشويه وتجفيف المنابع التي مارستها فرنسا ضدّ الطرق الصوفية في تونس وقد استمرّت هذه السّياسة المناهضة للتصوّف الطرقي مع حكومة الاستقلال. انظر تفصيل ذلك في كتاب الطريقة

عمل الشيخ قمار على نَشْرِ المدوَّنة البعقيليّة في تونس:

في مستوى الكتابة والتأليف "نستطيع القول إنّ حركة التأليف في الطريقة التجانية بتونس توقّفت منذ عصر الشيخ إبراهيم الرّياحي"[1]. وكنّا قد بيّنّا في فقرة سابقة الواقع الذي آلت إليه الطريقة التجانية في تونس، من تراجعٍ عدديّ وانزياحٍ عن المبادئ التي تأسّست عليها[2]. ولإصلاحِ ذلك وتداركِه، كان على الشيخ قمار أن يعتمد مدوّنةً مكتوبةً تقرّر مبادئ الطريقة التجانية بشكل محدّد وعمليّ، وِفْقًا لما جاء به الشيخ سيّدي أحمد التّجاني. وأمام غياب مصنّفات تونسيّة في هذا التوجّه، كان تطعيم الوسط التّجاني في تونس بالمدوّنة البعقيلية من أهمّ ملامح التجديد التي اشتغل عليها الشيخ قمار. وتكمن

التجانيّة في تونس التاريخ والآفاق للباحث نفسه والصادر عن دار الأهرام للطباعة والنشر صص 58–97، 136–146.

[1] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس ص97.

[2] – نورد كأمثلة عن ذلك مظاهر الاختلاط بين النساء والرجال في بعض الزوايا أو اقتصار عدد كبير من الزوايا على الذكر الأسبوعي ليوم الجمعة فقط، وتحوّل الطريقة التجانية من طريقة العلم والعمل إلى ممارسات سطحية تقف عند مجرّد التبرّك دون الالتزام بمنهج التربية الذي بُنِيت عليه الطريقة التجانية. انظر مظاهر هذا الانزياح بالتفصيل في كتاب الطريقة التجانية في تونس التاريخ والآفاق، صص 141–146.

أهمّية هذا العمل في أهمّية المدوّنة البعقيلية نفسِها لِمَا لها من ارتباط بليغ بالرّؤية التجانية للدّين والحياة. وهذه العلاقة بين المدوّنة البعقيلية وأفكار الشيخ سيّدي أحمد التّجاني وتصوّراته، تُعَدُّ قناعةً راسخةً عند الشيخ قمار الذي يفسّر هذه العلاقة بأسلوب تمثيليّ بسيط فيقول: "فكما ترون كلّ ما جاء به سيّدي الحاج الأحسن إنّما هو من الجواهر [1] كالشّرب الصّافي[2] مثلاً، كلّه من كلام الشيخ (سيّدي أحمد التّجاني)، لكن كلامَ الشيخ جامعٌ مانعٌ وعنده تواضعٌ كبير جدّا ويغطّي كثيرا من المسائل، لكن فوقها حجاب كالناموسية الواقية من الذباب والبعوض، لكن سيّدي الأحسن أخرج كلّ شيء مُخبَّأً ووضّح كل شيء وصرّح كل الصّراح. فما نقرأه الآن كان سابقا من الأسرار

[1] – يقصد كتاب جواهر المعاني، وهو من كلام الشيخ سيّدي أحمد التّجاني، جمعه تلميذه الشيخ سيّدي علي حرازم برّادة الفاسي.

[2] – يقصد كتاب الشُّرْبُ الصّافي من الكرم الكافي على جواهر المعاني، للشّيخ الأحسن البعقيلي، وهو حاشية على كتاب جواهر المعاني، في جزأين أراد فيه إبراز مقاصد كلام الشيخ وأجوبته في جواهر المعاني فرغ من تأليفهما في رمضان سنة 1351هـ، وطُبِعا بالمطبعة العربية درب غلف الدار البيضاء، سنة 1353هـ/1934م.

العظيمة، فقد كان الشيخ التّجاني يُوَاري حتى نفسه، لكن الآن تنبّهنا له".

وعليه فإنّ نشرَ هذه المدوّنة وترويجَ أفكارها بين المريدين التجانيين في تونس يمثّل خَلْقَ نسق فكريّ جديد متأصِّلٍ في البلاد التونسية، باعتباره يعبّر عن الطريقة التجانية، ومُفارقا للواقع السّائد في مستوى الطريقة التجانية والتصوُّف عموما. وقد سُئِل الشيخ قمار عن حقيقة التصوّف فقال: "ابدأ من سيّدي الحاج الأحسن وقصّر"[1]. وقال أيضا مؤكّدا قيمة الفكر البعقيلي في تصوّره الخاص: "من لم يقرأ كتب سيّدي الأحسن لا يعرف سرّ الطريقة وليس عنده قوّة الطريقة". ولم يكن هذا الموقف مجرّد انحياز منه لشيخه البعقيلي، بل هو أمرٌ يشاركه فيه أساطينُ الطريقة التجانية وشيوخُها، مثل الخليفة العام للطريقة التجانية في وقته الشيخ سيّدي محمود التّجاني[2] الذي كلّف الشيخ البعقيلي بتفقّد جميع الزوايا التجانية في المغرب

---

[1] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس ص 103.

[2] – هو الشيخ محمود الخليفة العام للطريقة التجانية وشيخ زاوية عين ماضي (محمود بن محمد البشير بن محمد الحبيب بن الشيخ أحمد بن محمد التّجاني). البعقيلي(الأحسن): الإراءة 185/1.

ويأمره بإرشاد كل من انتسب إلى الطريقة التجانية ويعطيه الولاية عليهم جميعا[1]. ويخبرنا الشيخ قمار أنّ الشيخ سيّدي محمود التّجاني قد أعطى للشّيخ سيّدي الأحسن البعقيلي الولايةَ العامّةَ والإذنَ المطلقَ لتفقّد وإرشاد جميع الزّوايا التجانية في العالم، ونجد إشارة إلى ذلك في واحدة من رسائل الشيخ البعقيلي حيث يُخبر أنّ الشيخ سيّدي محمود التّجاني قال له: "فلابدّ لك أن تعمل كُنّاشًا تُقَيّدُ فيه جميع المقدّمين كل بحدّه. فابحثْ عن إجازاتهم، فمن قبلته فهو، وإلا فاعزلْه ومزّق إجازته. فمن لم يتمشَّ على نهجك فاعزلْه"[2]. كما نلاحظ إقبال العديد من شيوخ الطريقة التجانية في العالم على مصنّفات الشيخ البعقيلي والعمل بما جاء فيها[3] خاصّة أولئك القادمين من البلدان الإفريقية. ومن هنا يتبيّن لنا أنّ شغف الشيخ قمار بالمدوّنة البعقيلية لم يكن انحيازا، ولكن كان اختيارا مدروسا

---

[1] – البعقيلي(الأحسن): الإراءة 233/1–234.

[2] – رسالة من الشّيخ الأحسن البعقيلي إلى تلميذه الشّيخ علي الأساكي بتاريخ 29 شعبان عام 1340هـ.

[3] – قال الباحث والمحقق محمد الراضي كنون في لقاء معه في داره بالرباط أن جلّ الزوايا في المغرب الآن هي على مشرب الحاج الأحسن البعقيلي رضي الله عنه. بتاريخ الأحد 11 شوال 1440 هجري الموافق لـ 16 جوان 2019م.

ومقصودا يشترك فيه مع رؤساء الطريقة التجانية. فكان يسعى إلى تقصيرِ هممِ تلامذته على هذه الكتب والمصنّفات وتَدَبُّرِ معانيها فيقول: "لنا تفسيرُ سيّدي الأحسن يغنينا عن جميع الكتب، فإنّ فيه المسائلَ على المذاهب الأربعة". ولا يقتصر الأمر على تفسير القرآن فحسب، بل يتجاوزه إلى جميع مصنّفات الشيخ البعقيلي التي تتّسمُ بتنوُّعِها وثرائِها وتعدّدِ مواضيعِها. فكان كلّما انضمّ إليه مريدٌ جديدٌ إلاّ وأشار عليه باقتناء كتب الشيخ البعقيلي، لا سيما كتاب الإراءة، وكتاب الشُّرْبِ الصَّافِي، وكتاب سَوْقِ الأسرار. ولأنّ النُّسَخَ المطبوعةَ لم تكن متوفّرةً، كان يشير عليهم باستنساخها على الآلة الناسخة.

إرساء الشيخ قمار لقَواعد العبودية لله:

إسقاط الغرَضِ مع الله:

كان هذا المقصدُ مَدارَ كل مواعظ الشيخ قمار والقطب فيها جميعا، وبه نبدأ لأنّه الأشدُّ على النفس، ولأنّ هذه القاعدةَ الأكثرُ تجاهلاً من بين بقية القواعد. فكان الشيخ ينوّعِ الأساليبَ ويقدّم الأمثلةَ الحسّيّةَ، زيادةً عن المعنوية لمزيد الإفهام.

ولتركيز هذه القاعدة الأساسية في فكر الطريقة التجانية في تونس، قدّمها بعبارة عامّية تونسية جامعة "بْلَاشْ بَاشْ" أي اعبُدْ ربّك دون أن تقصد تحصيلَ نتيجةٍ من عبادته. ويقول الشيخ قمار في ذلك: "خلاصة القول، من كانت فيه رائحةُ الشيخ (التّجاني) فقد انتهى كلُّ شيء، فلا يتحيّرُ ولا يَلزَمُه إلاّ أن تكون نيّتُه صالحةً وينزِع عنه تلك الأغراضَ، من أجل كذا....، من أجل كذا...، ليس ذلك بالأمر الحسن، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لنا من عمل كذا عنده كذا. ولكنّ الواحدَ منّا يعملُ ولا يلاحظُ عمله، فيعملُ ويُفوّضِ عمله. النبيّ صلى الله عليه وسلم قال اعملوا، فنعمل فقط امتثالاً وطاعة. وإذا أمرنا الشيخ (التّجاني) فكذلك، قال اعملوا فنعمل. إذا لاحظ أحدُنا تلك الأغراضَ في قلبه فَلْيطرحْها ويستغفرُ الله تعالى منها. فالشيخ قمار كان حريصا على العمل وفق مبدإ "الامتثال لمجرّد الأمر والنهي"، وهو مبدأٌ تَشَرَّبَهُ من أستاذه الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي الذي اعتبره مدارَ الشريعة كلِّها وعنوانَ العبوديةِ الخالصةِ لله، فيقول: **"قُمْ بين يديْ مولاك بالعبوديّة الخالصة من غير غرض دُنْيَوِيّ ولا أُخْرَويّ ولا**

بَرْزَخِيّ، بل لما عليه من جمالٍ وجلالٍ وكمالٍ[1]". والعملُ لمجرّدِ الامتثال عَدَّهُ إبراهيم الشاطبي، باعتباره أصوليًّا، أَفْضَلَ مسالكِ تتبُّعِ سائر مقاصد الشارع من الشريعة[2].

إخلاص العبادة لله، وعدم النظر إلى ثواب الأعمال:

يقول الشيخ قمار إنّ أهمّ مقتضيات "إسقاط الغرض مع الله" عدم النظر إلى ثواب الأعمال. "فالعملُ لله هو العبادةُ حقًّا وهو الأساسُ في كلّ شيء، وإلا فهو للناس، ولغير الله، وليس مقبولاً"[3]. وطلبُ الثواب بالأعمال هو طلبُ غيرِ الله، وله. يقول الشيخ قمار: "كلّ الأعمال يجب أن تكون خالصةً لله تعالى، بِأن تَعْمَلَهَا لله وتترُكَهَا ولا تتَّكِلَ عليها. فإن اتّكلتَ عليها لم يكن لك منها شيءٌ، لأنّها لم تعد لله". هنا تأتي مسألةُ إهداءِ ثوابِ الأعمال إلى روح رسول الله عليه وسلّم، التي يُولِيهَا التجانيون اهتمامًا كبيرًا، ويعتبرونها من أهمّ خصائصِ المنتمين

---

[1] – البعقيلي (الأحسن): سَوْقُ الأسرار إلى حضرة الشّهد السّتّار، ط2، الشّركة التّونسيّة للنّشر وتنمية فنون الرّسم، تونس 2009، ص18.

[2] – الشَّاطِبِي (إبراهيم): الموافقات في أصول الشّريعة، تحقيق عبد الله درّاز، دار المعرفة، بيروت لبنان، دت، 2/373-374.

[3] – من كلام الشّيخ قمار.

إلى طريقتهم. فكان الشيخ قمار يأمر بها ويُرغِّبُ فيها، فيقول: "أَهْدِ جميع طاعَاتك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ عبادتك ليست لك، وليست من فعلك، بل أصل إيمانك هو من الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذي يَعْبُدُ ويتكلّمُ ويتحرّكُ على الحقيقة لا نحنُ. فإذا أهديْتَها له صلّى الله عليه وسلّم، حَصَلَتْ لك فائدتان. الأولى أنّك اسْتَوْدَعْتَها عند الأَمِينِ وادّخرتَها ليوم الدين. فيربيها لك الله تعالى ويعظم أجرها والثانيةُ أنّك قطعت حبلا من أخطر حبال إبليس على النفس، وهو حبلُ الاطمئنان والرّكونِ إلى طاعاتنا وأعمالنا. فإذا ما عَرَفَتْ نفسُك أنّها لم يبق لها شيءٌ من الحسنات، ازدادت صفاءً واندفعت إلى الأمام ولم تجد ما تتّكِل عليه، فتتوكّلُ على الله وعلى الفضل الإلهي، فيحصُلُ المقصُودُ وهو التجرُّدُ ممّا سوى الله" وقد صادف يوما أن سأله نَجْلُه، سيّدي خالد في زيارةٍ عابرة له، فقال: "يا أبي، أعتقد أنّ الجلوسَ معك لدقائقَ معدودةٍ أفضلُ من الدنيا وما فيها. فقال له: بل أكثر. فقال سيّدي خالد: أفضلُ من الدنيا والآخرة؟ فأجابه بقوله: تقريبًا". وذلك لأنّ الدنيا هي غيرُ الله، والآخرة بِجِنَانِها هي أيضا غيرُ الله. والشيخ قمار من العارفين الذين لا يدلّون إلاّ على الله، فيجمعُ

قلبَ من جلس إليه من تلامذته على الله ويتجاوزُ به الدّنيا والآخرة في أنفاس معدودة، "فتجدُه يكلّمُ الرّجلَ الكلامَ القليلَ ويفعلُ في قلبه الأفاعيلَ ويرحلُ به إلى الله المراحيلَ"[1]. لذلك عُدَّ الجلوسُ إلى العارف الذي يجمع قلبَكَ على ربّك، أفضل في حقّك من الدّنيا والآخرة. وقد تحدّث الشيخ قمار ذات مرّة عن تلامذته مخاطبا أحدَ الحاضرين لمّا قال له: علِّمْهُم. فأجابه: "وماذا أعلّمهم؟ كلُّهم من أكابر العارفين بالله تعالى". وهذه المعرفةُ بالله ليست ذاتيةً فِيهم، وإنّما هي سارِيَةٌ فيهم من ذات مربّيهم وأستاذهم سيّدي محمد قمار، ولعلّ هذا الأمرَ بعينه هو الذي قصده الشيخ سيّدي الأحسن البعقيلي عندما قال إنّ: "الطريقة طريقتان، طريقةُ المعرفة وهي بسبب مربٍّ خاصٍّ في الطريقة على وجه خاصٍّ قائمٍ في المربّي، وطريقةُ عِلِّيِّين فوق الجنّة الثامنة وهي طريقةُ المُطْلَق بين يديْ المقدّمين وهي طريقة العامّة"[2].

مقاومة الأنانية وحب التميّز:

---

[1] – جواهر المعاني 90/1: من كلام سيّدي علي حرازم يصف الشيخ سيّدي أحمد التّجاني.

[2] – البعقيلي (الأحسن): الإراءة 147/1.

قد يُقبل العبد على العبادة لتحقيق رغباتٍ نفسيةٍ كحبِّ التملُّك أو حبّ البُرُوز والتمَيُّز، وهي عوائقُ نفسيةٌ دقيقةٌ تُفسدُ على العابد عبادتَه وتُعرّيها من الإخلاص الذي هو روحُ العبادة. فكان الشيخ قمار كثيرَ الاشتغال على هذه العوائق النفسية في إطار إسقاط الأغراض مع الله. ينطلق الشيخ قمار من مُسَلَّمَةِ أنّ الإنسان مجبُولٌ على حبّ الخير لنفسه، فيدفعُه ذلك إلى طلب التميّز، ومن ثمّة يتولّد عنده الأنانيّةُ وحبُّ الذات، فيقرّ الشيخ فطرة حبّ الخير للنفس، وليمنَعَها من أن تؤدّي إلى الأنانيّة، فإنه يُنَمّيها عند تلامذته بشكل إيجابيّ، فيشترطُ عليهم في ذلك أنْ يحبَّ الخير لجميع المؤمنين ويُشْرِكهم فيه تحت قاعدة "لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه[1]"، فيُبْقِي حبَّ الخير لأنّه من الفطرة ويقاومُ الأنانية وحبّ التميّز بتشريك الآخرين في ذات الأمر، ويبدأ في ذلك بنفسه فيقول: "إنّني أنوي إدخال جميع الناس معي

---

[1] – البخاري (محمد بن إسماعيل): الصحيح: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية،1419هـ=1998م، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، حديث رقم 13، ص26.

باعتبار أنّ فضلَ ربّي واسعٌ ويُخرجُ الله من أراد أن يُخرجَ، ولكن لماذا أَحْسُدُهُم؟ لا ينبغي أن أحسد أحدا، أنوي لأولادي وللفقراء التجانيين وأحبابي والناسِ أجمعين أنْ أُدْخِلَهم في الفضل، وفضلُ ربّي أوسعُ، أُدخلُهم في كلّ شيء الإسمُ وغيرُه. وللترغيب في هذا التعميم، يُقَدّم الشيخ قمار مثالاً حِسّيا بسيطا فيقول: "أنوي لجميع المؤمنين من كان منهم ومن سيكون، فإذا دعوتَ للجميع فإنْ أعطى اللهُ مَثَلًا خبزةً لكلّ واحد منهم فإنّه يعطيك على عدد ما أعطاهم وزِدْ عليه خُبْزتَكَ. فإن خصَّصْتَ فإنّك حصرْتَ الفضلَ الإلهيَّ وجعلت له حدًّا ومانعًا بزعمك، فمِثلُ هذا العمل هو لله لأنّه عامٌّ وهو المقبولُ وهو علامةُ القبول". فتصبح نيّةُ تعميمِ العمل دليلًا على أنّ العمل لله وعلامة عليه، لأنّ التعميمَ ضدّ التخصيص والأنانية.

يتناول الشيخ قمار مسألة الأنانية من زاوية أخرى، وذلك من خلال تفعيل قاعدة التجريد القائلة بأنّ "حبّ الظُّهُور قاسِمُ الظُّهور"، فيقاومُ تشوُّفَ تلاميذه للكرامات وخرق العوائد، فيعتبر أنّ ما أعطاه الله للتجانيين من غير جريان الكرامات على أيديهم يفوق ما وصل إليه غيرُهم ممّن جرت على أيديهم الخوارقُ والكراماتُ. فيقول: "من نظر إلى هذا الثواب يعرفُ

مرتبةَ الأولياء معه، لا أن يَبْخَسَ نفسه ويبخس شيخَه. ماذا عندهم؟ تلك الكراماتُ هي ذبابٌ، أنا لا أعتبرُها"، "أتُحبُّ أن يقول الناسُ سيّدي فلان؟، أن يعرفك الناس؟، هلكتَ، لم يبْق لك ثوابٌ، ها أنا ذا أيّها الناس إنّي تقي ورع" فالشيخ قمار لا يحبّ من يعتقد في نفسه الخصوصيةَ، أو يرى نفسه أرفعَ مقامًا من غيره. فيقول لهم: "إنّك لا تعرف، لعلّ الله يخلق من هو خيرٌ منك، حتى الكافر لا تقل إنّي خيرٌ منه لأنّه كافرٌ، فلعلّ اللهُ يتوب عليه فيرجع ويصبح أفضل منك. في حين أنّ الواحد لا يعرف، فربّما رجع فعصى الله أو يموت على الشقاوة"[1]. فكان شديدَ الحرص على أنْ يحُولَ بين تلامذته وبين ما يمكن أن يسبّب لهم هذا الشعورَ بالتعالي، فيحدّثنا عن أحد تلامذته ويقصدُ عموم الموعظة من خصوص المثال "أحد الفقراء قال لي: إنّي أرى بعض الخيالات وأرى بعض الأمور عند الذّكر. فسألته ماذا تقرأ؟ فقال: بعض الأسماء. فقلت له: توقّف عن قراءتها منذ اليوم واحذر أن تستعذب تلك الخيالات وإلاّ فإنّك تُهْلَكُ".

---

[1] – توجه بهذا الكلام لأقرب الناس إليه حتى لولده السيد خالد بل وبنبرة شديدة

الالتزام بالأوامر الشرعية وتقديمها على الكرامات والمراتب:

يرى الشيخ قمار أنّ المريد يجب عليه أن يسلّم أمره إلى الله ويقنَع بالمقدور الإلهي، وأن يجعل مراده في مراد الله، فيقول: "مقامُك حيثُ أقامك، فالاختيار لله لا للعبد، فإن قدّر عليك أن تختار فاختر أن لا تختار لأنّ مصلحتك في ما اختاره الله لك لا ما اخترته لنفسك. فالله أعلم بمصلحتك منك، فتَرْكُ الاختيار أوْلى ولا ترى دونك أيّ إنسان أو مخلوق، فكلُّ واحد له مقامٌ يخصّه والربُّ يحبّ الجميعَ وكلٌّ واحد أعطاه ما يناسبُه وما يُصلحُه ولا يَصْلُحُ له غيرُه. اعمل بالأسباب وأتقنها واترك الاختيار لله تعالى". من هذه القناعة تأتي أولويةُ الأوامر الشرعية في منهج الشيخ قمار، لأنّها اختيارُ الله لعباده. فهو يرى أنّ خلاصةَ مداركِ العارفين ومنتهى وصولِهم المحافظةُ على الصلاة والزكاة والصيام وملازمةُ الجماعة والالتزام بسائر المأمورات الشرعية. فعندما كتب بخطّ يده أنّه "يجدّد الدين لكل من اعترف بالربوبية..." وهي عبارةٌ تُخْفِي في طيّاتها إشارةً إلى قطبانيته، كتب إثرها مباشرة "وأوصيكم وإيّاي بالصلاة في وقتها" وهذا التعقيب استنتج منه خليفتُه سيّدي الحاج الحبيب بن حامد "أنّ الصلاة في وقتها تكون عنده رضي الله عنه

وأرضاه أعظمَ من جميع القطبانيات، وهو كذلك لأنّ المراتبَ لله وحده وهي من ضمن وظائف الربوبية والصلاةُ من مستلزمات العبودية ووظائفها، فيكونُ الاشتغال بوظائف العبودية في حقّ العبد أعظم عند الله من سائر المراتب"، ويقول سيّدي الحاج الحبيب بن حامد: "كان رضي الله عنه يقول لي مرارا وتكرارا: إنّ المعرفة هي أن وفّقك الله للصلاة وفعل الخير وأنّك لا تترُكُ صلاةً، انتهى الأمر، هذه هي المعرفة، لا تبحث عن أشياء أخرى". فالشيخ قمار يعتبر أنّ "الباطنَ من غير شريعة باطلٌ، ولذا فإنّ الفتح كما نقول دائما هو التوفيق إلى الصلاة والذكر في جماعة إلى آخره، فأعمالنا كلّها عبادة". ويقول أيضا: مؤكّدا على هذا المعنى: "كما نقول دائما الخير في الواقع، فالواحد منّا إذا فتح الله عليه بأن يصلّي ويذهب إلى الجامع وإلى الزاوية للذِّكر، وأثناء عمله يتذكّر الزّاوية ويتذكّر الجماعة ويتحيّن الأوقات ويتخيّر الوسائل حتى يذهب إلى الزّاوية، فهذا هو الفتح بل والفتح الأكبر أيضا. فماذا تريد بعد ذلك؟ فليحمد الله". بدافع هذه المسلّمات الذهنية، كان الشيخ قمار حريصا على أن يرسّخ الممارسات الشرعية بدقائقها في سلوك تلامذته ومريديه، وأن يسخّروا كلّ ما فتح

الله به عليهم من النِّعم في طاعة الله وعبادته، فيقول: "اعملوا الخير فهذه الدنيا لا تساوي شيئا، ولا تربح إلاّ ما أنفقته في طاعة الله، يبارك الله فيه ويزيده خيرا على خير. فمن ملك سيّارة لم يبق له عذرٌ، يؤدّي الصلاة حيث يريد ويجب عليه أن يذهب إلى الجامع. وما في ذلك؟ سيخسر ملّيمين، أيّهما خير؟ يربحُهم في طاعة الله أم يخسرُهم يومَ القيامة. نعملُ الخير إذا ما وفّقنا الله وليس منّا بل هو وفّقنا سبحانه وتعالى".

مُراعاة الوسائط:

من المسائل الاعتقادية التي اشتغل عليها الشيخ سيّدي محمد قمار بشكل جوهريّ عند تلامذته، نجد مسألة تعظيمِ الشيخ سيّدي أحمد التّجاني في قلوب التجانيين واستحضارِ وساطتِهِ رضي الله عنه في كلّ ما يُفاضُ عليهم من خير حسّيّ أو معنويّ، لأنّ الغفلةَ عن هذه الوساطة قد تجعل المريدَ التّجاني ينسبُ ما أُفِيضَ عليه إلى غير شيخه، فيُحْرَمُ من سرّ ونور ما أُفِيضَ عليه، بل وقد يُحْرَمُ من الانتفاع من مَدَدِ شيخه وبركته. وهذا أمر بيّنه الشيخ سيّدي أحمد التّجاني في كتاب الجواهر، حيث يقول: "فلكلّ شيخٍ من أهل الله حضرةٌ لا يشترك

فيها مع غيره. فإذا ورد منها نورٌ أو أمر من الأمور التي ذكرناها، ونُسِب إلى غير تلك الحضرة من الحضرات، اغتاظَ ذلك النّورُ ورجعَ إلى محلّه[1]". فيكونُ عمل الشيخ سيّدي محمد قمار في هذه النقطة ترسيخًا لما قاله الشيخ سيّدي أحمد التّجاني وتكريسًا للعمل به. ويؤكّد الشيخ قمار أنّ وساطةَ الشيخ التّجاني قائمةٌ بين الحقيقة المحمّدية وبين سائر الخلائق، فيقول: "بل وأيضا عن طريق الشيخ (أحمد التّجاني) رضي الله عنه، وليس من النّبي مباشرة، بل بواسطة الشيخ. حتى الأُمَمُ السابقةُ لا يأخذون عن أنبيائهم إلاّ بواسطة الشيخ". وليس هذا القول إنشاء من الشيخ قمار، إنّما هو اسْتِنْبَاط من كلام الشيخ سيّدي أحمد التّجاني حيث يقول: "الفيوضُ التي تَفيضُ من ذات سيّد الوجود صلّى الله عليه وسلّم تتلقّاهُ ذواتُ الأنبياء، وكلُّ ما فاضَ وبرزَ من ذوات الأنبياءِ تتلقّاه ذاتي، ومِنِّي يتفرَّقُ على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ في الصُّور"[2].

---

[1] – جواهر المعاني، 134/1.

[2] – الفوتي (عمر بن سعيد): رماح حزب الرّحيم على نحور حزب الرّجيم، حاشية على كتاب جواهر المعاني، المصدر السّابق،5/2.

وبشكل عام، كان موضوع الوساطة من المواضيع النشطة في دروس الشيخ قمار ومواعظه، وهي عقيدة اجتهد في ترسيخها عند التجانيين التونسيين، فإن كانت وساطةُ الشيخ سيّدي أحمد التّجاني مسألةً اعتقاديةً خاصّة بالتجانيين، فإنّ الشيخ قمار تناول أيضا بكثير من الاهتمام الوساطةَ العامّةَ التي يجب اعتقادُها عند سَلِيمِي الفطرة من المسلمين، وهي وساطةُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم، التي تُعَدُّ من المُسَلَّمات الذهنية عند التجانيين، فيقول الشيخ قمار مثلا: "لا شيءَ يأتي إلا بواسطة النبي ولا قَشّةَ إلاّ بواسطته صلى الله عليه وسلم".

مَظاهرُ الإضَافة التي قدّمها الشيخ قمار

الدعوة إلى العلوم الشرعية:

قد نعتقد من الوهلة الأولى أنّ الدعوةَ إلى العلوم الشرعية في بلدٍ مسلم لا يمكن بِحالٍ أن يُعدَّ من الإضافة أو التجديد، ولكنّا إذا نزّلنا جهودَ الشيخ قمار التعليميةَ في إطارها التاريخي للبلاد التونسية، نجد أنّ دعوتَه لتعلُّمِ الضروري من العلوم الشرعية هو من أهمّ الإضافات التي قدّمها للتجانيين التونسيين.

يَعتبر الدارسون أنّ فترة الثمانيناتِ من القرن العشرين، والتي ظهر فيها الشيخ قمار بصفته مُرَبِّيا في الطريقة التجانية في تونس، هي من أكثرِ الفتراتِ التي كانت فيه البلادُ التونسيةُ بعيدةً عن العلوم الشرعية دِرَايَةً وتطبيقًا، حيث تراجعت العلومُ والمعارفُ الشرعيةُ بعد التحوّلاتِ الثقافيةِ التي شَهِدتها البلادُ في مرحلة مَا بعد الاستقلال بسبب "تَعْصِيرِ التعليم ومجّانِيَتِهِ

وفتحِه أمام الجميع بدايةً من سنّ السادسةِ من العُمُرِ[1]". وحتى ينجح هذا المشروعُ التعصيري قامت حكومةُ الاستقلال "بإلغاء المرحلتين الابتدائية والثانوية من هذا التعليم العتيق"[2] الذي كان يرتكز أساسًا على العلوم الشرعية. فتمّ بذلك الاستغْناءُ عن جميع الفروعِ الزيتونية الموزّعةِ داخلَ مناطقِ البلاد بدايةً من سنة 1956م، "وأصبحت مرحلتُه العليا من مشمولات كلّية عصريةٍ للشريعةِ وأصُولِ الدين تابعةٍ للجامعة التونسية الناشئة"[3] وبذلك صارت العلومُ الشرعيةُ مقْصورةً على الطُّلاّب الذين وُجِّهوا إلى هذه الجامعة بعد حصولهم على شهادة الباكالوريا. هذه التحوّلاتُ أفرزت انتقالَ المركزيةِ المعرفيةِ من العلوم والمعارف الشرعية إلى العلوم الإنسانية والصحيحة، زيادةً على تقلُّصِ الخِطَطِ الوظيفيةِ لأصحاب الشهادات الشرعية بسبب "إلغاءِ المحاكمِ الشرعيةِ يوم 3 أوت1956"[4]. كلُّ هذه العواملِ ساهمت في جَعْلِ الإقبالِ على العلوم الشرعية

---

[1] – التميمي(الهادي): تونس من 1956م –1987م، ط1، دار محمد علي للنشر، صفاقس تونس، 2006، ص 54.

[2] – التميمي: تونس من 1956م –1987م، ص56.

[3] – التميمي: تونس من 1956م –1987م، ص56.

[4] – التميمي: تونس من 1956م –1987م، ص38.

يكادُ يصبح معدومًا. وهو ما أنتج خلال العقودِ الثلاثة الأولى للاستقلال أجْيالاً تشكُو من أُمِّيَّةٍ تكاد تكون مُطْلَقَةً في مجال العلوم الشرعية كالفقه والعقيدة والتصوّف والسّيرة النبوية الشريفة. انطلاقا ممّا تقدّم يمكننا إذًا أن نعتبر حرص الشيخ قمار على جعل العلوم الشرعية مَشْغَلًا مستقلا عند تلامذته من مظاهر التَّجدِيدِ والإضافةِ عند التجانيين التونسيين.

فِقه العبادات:

من كرامات الشيخ سيّدي محمد قمار كثرةُ اجتماعه برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبالشيخ سيّدي أحمد التّجاني. ومن أهمّ ما حصل له في هذه الاجتماعات أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم علّمه الصّلاةَ مُشافَهةً سنة 1974م، وكذلك علّمه الشيخ سيّدي أحمد التّجاني كيفيّةَ الرّكوع والسّجود مشافهةً سنة 1973م. وتدوينُ الشيخ قمار لهذا التّلقّي المباشَرِ وتعلُّمِ الصلاة، وتأريخُه للمناسبتين يدلّ على أنّ جوهرَ الطريقة التجانية في تصوّره يقوم على إتقان الصّلاة بطَهارتها وعلى سائر المأموراتِ الشرعيةِ، وهو ما حرص على تركيزه عند تلامذته ومُريديه. فكان يشْحَذُ هِمَمَهُم في طلب الفقه وتعلُّمِه،

ويَعْتبرُ أنّ التقصيرَ في ذلك إثمٌ، فيقول: "من لم يتعلّم الفقه فيخطئ في صلاته فيعيدُها فإنّ عليه إثم، لأنّه لم يُرِد التعلُّمَ في حين أنّ في مقدوره ذلك". وكثيرا ما نجد في كتب الفقه أنّ "الجاهل كالعامِد" يشتركان في بُطْلان العملِ والإثْمِ في الكثير من مسائل العبادات. ونذكر هنا أنّ الشيخ سيّدي محمد قمار كان مُدْرِكًا أنّ علمَ الفقه شديدُ الاتساع ومن أكثرِ العلوم الشرعية مصادرَ ومراجعَ، والإلمامُ بها أو ببعضها يقتضي التفرُّغَ والانقطاع لهذا العلم، وهو لم يعد يتسنّى حتى للراغبين فيه بسبب تشعُّبِ مطالِبِ الحياة، وعدمِ المردودية المادية لهذه العلوم. لذلك أراد الشيخ قمار أن يُوَفِّق بين القيمة الدينية لهذا العلم وبين مُتَطلّبات الحياةِ المعاصرة، فحدّد ما ينبغي على تلامذته أن يشتغلوا به من الفقه، فقصّر هِمَمَهُم على التعمُّقِ في فقه العبادات على المذهب المالكي وهو المذهبُ الرسميُّ للبلاد التونسية. ثمّ لتجنُّب التفريعات الكثيرة ولمزيدٍ من النجاعةِ والعَمَلِيّة، حَدَّدَ الشيخ قمار المصادرَ التي يَرْغَبُ من تلامذته أن يعتمدوها. فكان يحُثُّهم عل حفظ متن ابن عاشر [1] المسمّى

[1] – أبو مالك عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري الأندلسي أصلا، الفاسي مولدا ودارا، المتوفّي سنة 1040هـ، فقيه وأصوليّ ومتكلّم. أخذ عن أشهر علماء

"المُرشِدُ المُعينُ على الضَّرُورِي من علوم الدّين" فيقول: "حفظ متن ابن عاشر والبردة كلّ واحد وحده... كلّ واحد يأخذ بيتين ويُكرِّرُهم حتى يحفظهم" ويحُثُّهم أيضا على الرجوع إلى شرح هذا المتن وهو كتاب "الدُّرُّ الثمينُ والمَوْرِدُ المُعِين لصاحبه محمد بن أحمد ميّارة[1]. إذا تأمّلنا هذا الاختيارَ نجد له فوائدَ تعليميّةً كثيرةً منها:

أوّلا –تحديدُ المصدر التعليمي يُمثِّل وقايةً من التشتُّتِ الذهني الذي يُهْدِرُ الطاقةَ بلا طائلٍ، لأنّ اختيار قولٍ من جملةِ أقوالٍ عدّة يحتاجُ إلى مَلَكَةٍ فقهية خاصّة باتَ يفْتقِدُها الكثيرون، فيكونُ الشيخ سيّدي محمد قمار قد جنَّبَ تلامذتَه عائقًا من أكبر العوائقِ عن طلب المقصودِ سبحانه وتعالى، خاصّة بعد هذا المدِّ الإعلاميِّ الغزيرِ الذي حَصَرَ الدينَ في المسائل

المغرب، له مصنّفات كثيرة، اشتهر بمنظومة المرشد المعين المسمّاة باسمه "متن ابن عاشر": مخلوف، ترجمة رقم1182، 434/2.

[1] – أبو عبد الله محمد بن أحمد ميّارة، ولد سنة 999هـ وتوفّي سنة 1072هـ، من العلماء المتبحّرين في الفقه المالكيّ، أخذ عن ابن عاشر وشاركه في جلّ شيوخه. له تآليف عدّة من أشهرها شرح ابن عاشر، وشرح المختصر قَصَدَ به اختصار شرح الحطّاب لمختصر الشّيخ خليل: مخلوف، ترجمة رقم 1218، 447/2-448.

الخلافية، فتحوّل الفقهُ من وسيلةٍ لتصحيح العبادة إلى شُغْلٍ شاغلٍ عند الناس. فقام الشيخ بجمع تلامذته على الأقوال المشهورةِ ذاتِ السّند المتين في المذهب، حتى يكونَ اهتمامُهم الأكبرُ مُنْصَبًّا على مقاصد الشريعة وأهدافِها، من تعبّدٍ لله وامتثالٍ للأوامر واجتنابٍ للمنهيّات.

ثانيا -القيمةُ العلميّةُ لهاتين الوسيلتين التعليميّتين: فَالْمَتْنُ يُمثّلُ الأقوالَ المشهورة من المذهب في جميع المسائل التي ذكرها، ويقول عنه الشيخ قمار: "ثمّ هناك متنُ ابن عاشر في الفقه للحفظ، وهو يُسمّى بسيدي خليل الصغير". يقصد بذلك أنّ متنَ ابنِ عاشرٍ يُضَاهِي مُخْتَصَرَ الشيخ خليل في القيمة العلميّة. أمّا شرح المتن المعروف بميّارة فهو شرحٌ ثريٌّ جدّا، اعتمد فيه صاحبُه على أمّهات الكتب وعاد فيه إلى أقوالِ زُهَاءَ الخمسين عَلَمًا من أعلام الفقه المالكيّ، زيادةً على أنّ الفترةَ التاريخيةَ التي كُتب فيها المتنُ وشرحُهُ تُعَدَّ فترةً متأخّرةً جدا. فقد كُتِبَا في بداية القرن الحادي عشر هجري (بداية القرن السابع عشر ميلادي)، فمثّلا بذلك خلاصةَ إنتاج الفقه المالكي في مجال العبادات.

ثالثا –سهولةُ التعامل مع هاتين الوسيلتين التعليميّتين، فالمتنُ يضمُّ ثلاثَ مائةٍ وأربعةَ عشر بيتا لا يُعْتبرُ حفظُها مهمّةً شاقّةً، أضف إلى ذلك أنّ التعاملَ مع نظمٍ يكون أسهلَ في الحفظ من نصٍّ سرديٍّ، واستخراجُ المسائلِ منه مهمّةٌ يسيرةٌ لمن حفظه. كما أنّ حجم الشرح يُعدُّ صغيرًا مقارنةً مع بقية المصادر الفقهية، ويسهلُ حملُه والتنقلُ به.

السُّنّة والسّيرة:

رأينا سابقا أنّ الشيخ قمار كان شديدَ التمسك بالسُّنّة النّبويّة في عباداته وسلوكه وعلاقاته، وكان يسعى دوما إلى ترسيخ هذا التوجّه عند تلامذته من خلال حثّهم على التفقّه في السُّنّة والسّيرة.

لتحقيق ذلك بشكل بسيط وفعّال اختار الشيخ قمار لنفسه ولتلامذته الاعتمادَ على كتاب "الجامع الصّغير في أحاديث البشيرِ النّذيرِ" للإمام السّيوطي، وهو كتابُ حديثٍ اختُزِل منه السند وليس فيه مكرّراتٌ، أحاديثُه مُتنوّعةُ المواضيع. يقول سيّدي الحاج الحبيب بن حامد: "قال لي الشيخ قمار رضي الله عنه: اقرأ الجامع الصغير فإنّ فيه كلّ شيء". وقد كان

الشيخ قمار يَخْتِمُ هذا الكتابَ المرّةَ تِلْوَ المرّة، وكان يُعلّقُ على بعض الأحاديث حتى اجتمع من تعليقاته كرّاسٌ معتبر، ولم يلتفت الشيخ قمار لما قاله علماءُ الحديث عن كتاب "الجامع الصغير" وتضعيفهم العديد من الأحاديث الواردة فيه، ولعلّ عُمدته في عدم المبالاة بهذه الانتقادات ما ذكره الشيخ العربي بن السائح في كتاب البُغْيَة أنّ الإمام عبدالوهاب الشعراني[1] قال: "رأيتُ بخط جلال الدين السيوطي عند بعض أصحابه مراسلةً لشخص سأله شفاعةً عند السلطان ونصُّها: اعلم يا أخي أنّني اجتمعتُ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى وقتي هذا خمسًا وسبعين مرّةً يَقْظَةً ومُشافهةً، ولولا خوفي من احْتِجَابِه صلّى الله عليه وسلّم عنّي بسبب دخولي للولاّة لَطَلَعْتُ القلعة وشَفَعْتُ فيك عند السلطان، وإنّي رجلٌ من خُدّام حديثه صلّى الله عليه وسلّم أحْتَاجُ إليه في تصحيح الأحاديث التي

---

[1] - هو الشيخ عبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة 973هـ، من جهابذة علماء الصوفية، له مصنّفات عدّة في مجالات كثيرة، ويُعَدُّ من كبار علماء الحديث في عصره. أخذ العلوم الشرعية عن أعيان علماء مصر، ثمّ تعلّق بطريق القوم فسلك مسلك الزّهد والرياضة والمجاهدة حتى وصل وصار من رؤساء القوم: ابن العماد (شهاب الدين)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ط1، 1986، 10/544-547.

ضَعَّفَهَا المُحَدِّثون من طريقهم. ولا شكّ أنّ نَفْعَ ذلك أرجحُ من نَفْعِكَ أنت يا أخي"[1]. فيكونُ كلامُ السيوطي دالاّ على أنّه قد صحَّحَ ما أورده في مُصَنَّفِه من رسول الله صلّ الله عليه وسلّم، مشافهةً يقظةً لا منامًا.

كما وجّه الشيخ قمار تلامذته إلى الاطلاع على السّيرة النّبويّة والاعتبار منها، وحدّد لهم في ذلك مرجَعين أساسيّين إضافةً إلى كتابِ [الجَامِعُ الصّغيرُ] فقال: "اقرؤوا كتابَ [الجَامِع الصغير] و[فُتُوحُ الشَّامِ][2] و[سِيرَةُ ابنِ هِشَام] لكي تعرفوا ماذا جرى وكيف انتشر الإسلامُ، وتعرفوا ماذا قاسى الرّسولُ صلّى الله عليه وسلّم هو وأصحابُه. فأصحابُه لا يعرفون الخوفَ إطلاقا ولو قليلاً وهذا نقوله حتى نعتبر". بالإضافة إلى هذه المصنّفاتِ العلميّةِ كان الشيخ قمار كَجُلِّ شيوخِ الطرق في تونس يعتني كثيرا بقصيدَتَيْ البُرْدَةِ والهَمْزِيَّة للإمام البصيري. وفي كلتا القصيدتين أهمُّ أحداثِ ومراحلِ السّيرةِ

---

[1] – السّائح: البغية، ص 215

[2] – هو كتاب في المغازي لمحمد الواقدي، تناول فيه أحداث فتوحات العراق والشّام ومصر في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

النّبويّةِ بأسلوبٍ شعريٍّ مُتَمَيِّزٍ. وبذلك يكون الشيخ قمار قد نوّع مراجعَ تلامذته في هذا المَبْحَث من الخِطابِ التّاريخيّ ذي الأسلوبِ العلميِّ كسيرةِ ابن هشام إلى الأسلوبِ القصصيِّ التّشْويقِيِّ ككتاب فتوح الشّام إلى الأسلوبِ الشّعريِّ التّرفيهيِّ المُتَمَثِّلِ في قصيدتي البردة والهمزيّة.

العقيـــــدة:

عندما نتحدّث عن العقيدة في تونس وفي إفريقيا الشمالية عموما فإنّنا نتحدّثُ عن العقيدة الأشْعَرِيَّة. فكلٌّ من خاض في العقيدة من علماء هذا الإقليم إلاّ وقد التزم بالمقولات الأشعريّة، سواءً كان متكلّمًا أصالةً، أو مفسّرًا أو عالمًا من علماء الأذواق والتربية كشيوخ الطُّرق. من الطبيعي إذًا أن نجد في كتاب جواهر المعاني العديدَ من أقوال الشيخ سيّدي أحمد التّجاني التي تعبّر عن انتمائه لِلْأَشْعَرِيَّةِ، هو ما يفسّر أشعريّةَ كلِّ المنتسبين للطريقة التجانية في العالم. لذلك نجدُ الشيخ قمار يعملُ جاهدًا على ترسيخ الفكر الأشعريّ بين تلامذته من خلال وسائلَ عدّة. فقد احتوى متنُ [ابن عاشر] على اثنين وثلاثين بيتا تلخّص مجملَ العقيدة الأشعريّة. وكان الشيخ قمار يطلب

من تلامذته التّأمّلَ في شرح الأبيات بعد حفظها. زد على ذلك أنّ مصنّفات الشيخ الأحسن البعقيلي والتي تُعدُّ المرجعَ الأساسيَّ للشّيخ قمار ولتلامذته، جميعها قد بُنِيَتْ على ما يُوَافِقُ المذهبَ الأشعريَّ. فنجدُ الشيخ البعقيلي يتناولُ العقائدَ الأشعريّةَ إمّا بشكلٍ عرضيٍّ عندما يقتضي السياقُ ذلك، أو بشكلٍ مباشرٍ عند تناولِه عقائدَ المسلمين. وله مصنّفٌ في العقيدة دعا فيه إلى الأشعريّة واعتبرها سنام أهل السُّنّة، وهذا المصنّف بعنوان [إِيضَاحُ الْأَدِلَّةِ بِأَنْوَارِ الْأَئِمَّةِ]. فيكونُ تلامذةُ الشيخ قمار في تونس قد تشرّبوا العقيدةَ الأشعريّةَ من مصادرِ الطريقة التجانية ممزوجةً بالذّوق العرفاني الذي كان الشيخ قمار يربّيهم عليه. فلا تجدُ منهم من يفْصِلُ بين العقيدة الأشعريّة وانتمائه إلى الطريقة التجانية، لأنّ المدوّنة البعقيلية قدّمت لهم العقائدَ الأشعريّةَ لا باعتبارها مَشْغَلًا كلاميًّا عند المتكلّمين، ولكن باعتبارها جزءًا من صحيح الاعتقادِ الذي يريدُه الشيخ أحمد التّجاني عند تلامذته ومُريديه.

تحقيق شمولية الطريقة تبعا لشمولية الشريعة:

حرص الشيخ قمار على أن يَخرُجَ بالطريقة التجانية من إطارها الضيّقِ المُنْحَصِرِ في الزوايا، إلى مجال المجتمع

الواسع عبر خُطُواتٍ منهجيةٍ واضحةِ المعالمِ. ويمكن أن نعتبرَ أنّ أهمَّ هذه الإجراءاتِ المنهجيّةِ تتلخّصُ في أمريْن اثنين جعلا الطريقة التجانية في تونس تختلفُ عنها في الكثير من مناطِقِ العالم:

أوّلا –دَمْجُ الزاوية في المسجد، وهو أمر احتاجته الطريقة التجانية في تونس. فقد عاصر الشيخ قمار تاريخ الطريقة التجانية في تونس لمدّة تزيد عن السبعين عاما، ولاحظ عن كثب ما طرأ عليها من تغيّرات. فقد كانت الزاوية تحتلّ المكانةَ المركزيّةَ في التّصوُّر الذّهني للمريدين التجانيين. فهي "الرّابطةُ الرّوحيةُ، ففيها يلتقِي الأحبابُ بالشيخ المربّي ويُسمَّى المقدّم أو النّقيب، وفيها يتعلّمون أُصولَ طريقتهم وطريقةَ الذِّكر وآدابِه"[1]. فارتبط بذلك وجودُ الطريقة بالزاوية وهو ما ساهم فعليّا في التراجع الحادّ لعدد المنتسبين للطريقة التجانية بعد التضييق الذي تمّ على مؤسّسة الزاوية في عهد الاحتلال الفرنسي ثمّ دولة الاستقلال بدايةً من سنة 1957م عندما تمّ

[1] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس ص 102.

إلغاءُ نظام الأحْبَاسِ[1] وما تبع ذلك من تشهير إعلاميّ بالزوايا والطرق الصّوفية. فكان على الشيخ قمار أن يشتغلَ على تصحيحِ ترتيبِ الأولويات الذهنية عند المريد التّجاني لتصبح الأولويّةَ المطلقةَ مركّزة على الأفكار والمبادئ التي تأسّست عليها الطريقةُ، لا على الزاوية التي يجتمع فيها المريدون. ويستند في ذلك إلى القاعدة البعقيلية القائلة أنّ "الزاوية التي لا حقائق فيها، فندق"[2]. فالزاوية تستمدُّ قيمتَها ممّا يدرَّسُ فيها من مبادئَ ومعارفَ، فإن فُقدت هذه المعارفُ فلا خصوصيّةَ للزاوية. وعَمَليا اعتمد الشيخ قمار عند ظهوره بصفته شيخ تربية على جامع الزيتونة كمركز يجتمع فيه بتلامذته، ثمّ حرِص على تحويل زاوية باب الخضراء[3] إلى مسجدٍ جامعٍ تُقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وبذلك يضمن عدمَ

---

[1] – الرّائد الرّسمي التونسي الصّادر في 19 جويلية 1957، صص1160-1162.

– التّميمي: تونس من 1956م-1987م، ص38.

[2] – البعقيلي(الأحسن): الشُّرب الصّافي، 79/2.

[3] – وقع تسجيل الزاوية التجانية باب الخضراء ضمن الشعائر الدينية بطلب من المقدّم سي الحبيب المشري رحمه الله تـ 2002م وقد اشترط في هذا التسجيل أن تحافظ على صفتها كزاوية تجانية.

الفصل بين المريدِ في زاويته والمجتمعِ الذي يعيش فيه. فلم يَعُدْ يرى جَعْلَ الزاوية مؤسّسةً مستقلّةً يخدم الطريقة التجانية ولا يحقّق أهدافها، فهو لا يريد تكوينَ جيلٍ معزولٍ عن المجتمعِ والواقِعِ المعيش. فلم يقبل من تلامذته أن ينقطعوا إلى العبادة أو أن يتخصّصوا في العلوم الشرعية دون غيرها من العلوم والصنائع المعاصرة، لأنّ ذلك قد يَفْصِلُهم عن واقِعِهم ومن ثمّة يَفْصِلُ الطريقة التجانية عن المجتمع، بل أراد أن يجعل ثقافَتَهم الشرعية وأذواقَهم المعرفيّةَ تتشكّلُ داخلَ مجتمعاتِهم وفي ثنايا حياتِهم، دون أن تظهر عليهم الفئويّةُ. وبذلك تنتشر الرُّؤَى التجانية داخل المجتمع بصفة عفوية كسلوكيات تعبدية وتعاملية منبثقة من جذور موروثنا الثقافي والدّيني لا غير.

ثانيا –الانتقال من مرحلةِ الفردِ التّجاني إلى مرحلةِ الأسرةِ التجانية، نعلم أنّ خلال فترةِ الرّكودِ كان الانتماء للطّريقة التجانية مقصورا على بعض الأفراد من الرّجال والشبّان، في حين أنّ النّساءَ يغلُبُ عليهنّ الانتماءُ الشعبي للطُّرق، أي زيارة الأضرحة للتبرُّك لا غير.

فكيف اشتغل الشيخ قمار على توصيل الطريقة التجانية بمبادئها التربوية إلى الأوساط النسائية؟ سؤالٌ طرحناه على

خليفته سيّدي الحاج الحبيب بن حامد الذي لازمه منذ سنة 1985م[1]، فأجاب بما مفادُه: "أنّ الشيخ قمار ككُلّ عارفٍ له تخطيطٌ ونظرٌ، ولكنّه لم يكن يفصحُ عنه، إلاّ أنّ تخطيطَه يُستشفّ من أفعاله. فأوّل المعطيات التي ينطلق منها الشيخ قمار أنّ الاختلاطَ بين الجنسيْن في تونس أصبح أمرًا واقعًا لا فِكاك منه، فوجب استثمارُ شيءٍ من هذا الاختلاط لتحقيق الاستفادة، بخلاف ما يعتقدُه الكثيرون أنّ من أولوياتِ الخطابِ الدّيني تكريسَ الفصل بين الجنسين. فالشيخ قمار يرى أنّ الرّهانَ الحضاري المعاصرَ يتمحور حول المرأة، فإن أدركنا معركةَ النساء فُزْنا وإن تجاوزتنا هذه المعركةُ خسرنا، لأنّهنّ من يُعدِدْن الأجيال. فبدأ في ذلك بأهل بيته، فكان يُدخلُ تلامذتَه إلى بيته وكثيرا ما كانت بناتُه يسألْنَه أمامهم، وأحيانا يسألنه عن فقهِ طهارةِ النساء فيجيبُهنّ في أرْيَحِية كبرى ومبدؤه في ذلك أنّ الحياءَ لا يكون إلاّ ممّا حرّم الله. وكان يجلس معهنّ رفقة بعض تلامذته في غرفة التلفاز، ولا يقطع عليهنّ مشاهدة المسلسل بقراءة الحديث النبوي أو كتب الطريقة حتى

---

[1] – (الباحث) وقفت على تقييد لكلام الشيخ القمار بخط الحاج الحبيب بن حامد مؤرخ بسنة 1985م وهو أقدم تاريخ وقفت عليه.

لا يَغْضَبْن، ثم يفتتح الدرس بعد ذلك وهذا كل يوم، وكان له من وراء ذلك هدفٌ يقصُدُهُ، فيَلِينُ شيئا ما ثمّ يستأنفُ الدّرسَ حتى يُسْمعَهُنَّ مع تلامذته. وشيئا فشيئا أصبحن يجلسن في مجلسه عند الدرس رغبةً في التعلُّم حتى أصبحن قادراتٍ على تعليمِ غيرِهنّ. فصار النساءُ يقصدن ابنتَه السيّدة رُقيّة لكي يتعلّمن منها أهمّ المسائلِ في فقه الطهارة والصلاة وفقه الطريقة. فكان يدرّبُ تلامذته على هذا الاختلاط البنّاء ليعلّموا بدورهم نساءَ بيوتِهم. ومن هنا أصبح النساء يقصدنه للسؤال عن دينهنّ فيستقبلُهُنّ ولا يمنعُهُنّ، ويجتمع بهنّ في مجلسه، ومِنْهُن مثقّفاتٌ حاصلاتٌ على شهاداتٍ جامعيةٍ عُليا كالماجستير والدكتوراه يأخذن عنه المسائلَ بمنهجٍ علميٍّ فيُسجِّلن ما يأخذن عنه في كرّاسٍ خاصٍّ، ويخصّصن لذلك حصّةً أسبوعيّةً عادةً ما تكون يومَ الجمعة. فبدأْن يتعرّفن على الطريقة التجانية ويأْخُذْنها عنه بحسب المفهوم الأصلي الصحيح الجامع بين العلم الشرعي والعلم الإحساني. ولكن في مقابل احتفائه بالسائلات عن الفقه والطريقة كان حازمًا مع النساء اللواتي يقصدنه من أجل التمائم أو التنبُّؤ بالمستقبل والطالِع، فكان يصْرِفُهن عنه بشدّة حتى يفصلَ الطريقة

التجانية عمّا ليس منها في تصوُّرِ المرأةِ التونسية. وجديرٌ بالذِّكر أن نقول إنّ تقدُّمَه في السّنّ ساهم في تحقيق التواصُل بينه وبين تلميذاتِه، فكنّ ينظُرْن له نظرةَ الوالد، وكان لهنّ والدًا ومعلّمًا، يلاطفُهنّ ويُباسطُهنّ فتعلّقْن به وصِرْن يستشرْنَه في شؤونهنّ الخاصّة. وكذلك الأمر إذا ذهب لزيارة ابنته بصفاقس حيث كانت جاراتُها يُقْبِلن عليه ويتحلّقْن حوله، فيصبر عليهنّ حتى صَلُح حالُ الكثيرات منهنّ وصرن متعلّقاتٍ بالدّين يُحْبِبْن الصلاةَ والتسبيحَ. كما كان يتراسلُ مع بعض تلميذاته من مدينة جربة فيجيبُها عن تساؤلاتها بشكلٍ مستمرٍّ حتى تَجمَّعَ لديْها من رسائله عددٌ مهمٌّ، جلُّها في مسائلِ فقهِ العبادات وفقه الطريقة التجانية. وكان يُحَرِّضُ كلَّ اللّواتي يجتمع بهنّ على قراءةِ كتب الفقه وكتب الطريقة وحفظِ شيء من القرآن ولو سورة "**يس**" على الأقل.

لم يكن الشيخ قمار يدّخر جهدًا في تعليم النساء، فكان يغْتَنِم أبسطَ الفرص ليمرّر لهنّ ولو فكرةً عابرةً وبأيّ طريقة كانت، وكيف ما كنّ وعلى ما هنّ عليه. ومن منهجه مع النساء أنّه كان يرفُضُ إخراجَهنّ على ضوابطِ واقِعِهِنّ الذي يعشن فيه، لأنّ ذلك يُفْسِدُهُنّ أكثرَ ممّا يُصْلِحُهنّ. وبشكل

إجمالي كان الشيخ قمار حريصا على خرق الجُمُود والصّمْتِ في مسألة التربية الذوقية للنساء، فكان يريد أن يُقنع تلامذتَه أنّ المرأةَ أيضا لها باعٌ في هذا المجال. فكان يُكْبِرُهنّ ويذكر الصالحاتِ منهنّ أمام تلامذته من الرجال بكل خير ويقول أنّ المرأة إذا صلّت صلاتها وحافظت على نفسها وعفتها فإنّها من أكابر الأولياء.

منهجه في التربية والتعليم

البصيرة والهمة في التربية الوجدانية:

تحدّث الشيخ سيّدي الحبيب بن حامد عن منهج الشيخ سيّدي محمد قمار وأسلوبِه في التربية الذَّوقيّةِ والوِجْدَانِيَّةِ فقال: "أوّلاً وبالذات إنّما هو رجلٌ يتحرّك بالله لا بنفْسه، فكلُّ ما برز له فهو يفهمُه من الله وعن الله سبحانه وتعالى، ويتفاعلُ معه أي يعطي لتلك التجَلّياتِ حقَّها من العبودية. وهذا ما يجعل كل حركاته رضي الله عنه، فيها بركةٌ. والعمودُ الفقري هو أن يُعلّمَ كلَّ من اتّجه إليه أو انْحَاشَ إليه أو تقرّب منه، أن يربّيَهُ تربيةً سليمةً، ويزيحُ عنه كل الأوهام في عقيدته وفي دينه وفي توجُّهِه إلى ربّه سبحانه وتعالى بكلّ الصّيَغ التي تُناسب ذلك الشخص. فمن كان لا يصلّي فإنّه يربّيه حتى يجعله يصلّي، ومن كان لا يعمل بالسُّنّة فإنّه يربّيه حتى يُحَبِّبَ إليه سُنّةَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويعملَ بها، ومن كانت له نظرةٌ سلبيّةٌ إلى علماء الدّين وإلى الدّين وإلى التّشدّد في الدين فإنّه ينزع عنه المانعَ أو الحاجزَ الذي يحجُبُ صاحبَه عن التقدّم

في عبادة الله على الوجه الأخصّ، فإنّه ينزع ويسْتَلُّ منه هذه الحواجزَ برشاقة التربية وبرشاقة النظرة الصادقة في مرآةِ كلِّ من قابَلَهم. فهذه البصيرةُ النافذةُ التي كانت له هي التي تُعينُه على كلّ من كان سجينَ همٍّ أو مانعٍ حتى يُخرِجه إلى فُسْحَة العبادة الخالصة لله سبحانه وتعالى، وهذا كان دأْبَه في كلّ الأحوال. رأينا مثالَ بائعِ الغلال الذي كان يشتري منه الغلال فيغُشُّه ويبيعُ له غلالاً فاسدةً، فيصبرُ عليه حتى يَزِنَ له البضاعةَ، وبعد أن يدفع له ثمن البضاعة يقول له: سأعطيكَ نصيحةً. فيقول: نعم، تفضّل. فيقول له: إنّك لم تغشّني، وإنّما غَشَشْتَ نفسك. فيقول له: هات أغيّر لك البضاعة. فيقول له: لا، أنا سامحتك، ولكنّك غشَشْتَ نفسك، فلا تعد لمثله. انظر هذه الأمثلةَ الحياتيّةَ وكيف كان رضي الله عنه وأرضاه يدفع من ماله ووقته وجسده من أجل أن يُصلح فردا واحدا في المجتمع، لعلّ بركةَ ذلك الصبر وذلك الموقف الذي اتّخذه تعود بصلاح ذلك الرّجل، فلا يعود إلى الغشّ وتبقى له تذكارا. هكذا كان دَأْبُه، يربّي. إذن هو رجلٌ شمّر على ساعد الجِدِّ، شمّر على الجدّ الكامل في دين الله، وحَبَّسَ نفسَه وعمرَه وأوقاته على خدمة المسلمين لوجه الله. وهذا هو العمود الفقري في كلّ

تحرّكاته وسكناته، ومع هذه البصيرة النّافذة ينْصَبِغُ في قلبه ذوقًا وفهمًا مثل البرْق في حقّ كلّ من قَابَلَه، فيعْلَمُ ما يُصلِحُه وما يُفْسِدُه، وكيف حالُه وما هي تعلُّقاته، وما هي موانعُه، فيربّيه ويصبر له العام والعامين والخمس سنوات، ولا يقطع علاقته بأحد أبدًا وإنّما دائما يربّيه حتى يرجع، هذا دأبُه. كان له مسارٌ ربّانيٌّ ينظره بالبصيرة الربّانية.

كان منشغلاً بتقديم جيلٍ يعبدُ الله سبحانه وتعالى مخلصًا الدّينَ لله، متعلّمًا ما يلزمه من أمور الفقه التي هي واجبةٌ بين اليوم واللّيلة، متعلّمًا العقيدةَ الأصليّةَ اللازمةَ لكلّ مسلمٍ مؤمنٍ من تعظيمِ شعائرِ الله وكتابِ الله وتعظيمِ سنّةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعدمِ التراخي في استعمال السُّنَّة منهجا للحياة، وتعظيمِ الأشرافِ وتعظيمِ العلماءِ وتعظيمِ كلِّ ما يجب تعظيمُه، مع التّفتُّحِ على الزمن لباسًا وغيرَه.

وكان رضي الله عنه يقدّم الأهمَّ على المُهِمِّ، ولا يقطعُ علاقتَه التربويةَ مع أحد أبدًا مهما كان، ولو رآه كلَّ يوم يشربُ الخمرَ فإنّه لا يقْطعُه. وهذا شيءٌ عظيمٌ في مساره، ويصبرُ له ولا بدّ أن تُدركَه بركةُ صبرِه رضي الله عنه وأرضاه. وفعلاً

فإنّه ترَك جيلاً كاملاً يقول بأقواله وأفعاله ويسْتَشْهِدُون به، وهذا الجيلُ قبِلُوهُ وجعلوه قدوةً لهم".

قد ذكرنا سابقا أنّ المربّي في عُرْف الطُّرُق هو ذلك الرّجلُ الذي أعطاه الله سرًّا باطنيًّا يتواصلُ به مع الخَلْق، فإذا تكلّم تحوّلت كلماتُه بالسّرّ القائمِ فيه إلى ذواتٍ حيّةٍ في قلب السّامع، فيحصلُ منها الانشراحُ والانْجِذابُ للحضرة الإلهية، وهذا أمرٌ يشهدُ به كلُّ من عرف الشيخ سيّدي محمد قمار، بل إنّ هذا الانجذابَ والشوقَ حصل لكثيرين من تلامذته بمجرّد اللقاء الأوّل والنظرة العابرة. وحدّثني أحد خاصّته من تلامذته أنّه ما سمع بالطريقة التجانية قطُّ، ولكن بمجرّد رؤيتِه للشّيخ سيّدي محمد قمار في مناسبة عائلية، حتى انجذب إليه وتقرّب منه. فلمّا عَلِم أنّه واحدٌ من شيوخ الطريقة التجانية، انْضمّ إليه وأخذ عنه الطريقة وقرّر ملازمَتَه من حينها.

ويقدّم لنا سيّدي الحاج الحبيب بن حامد إضافةً أخرى مهمّةً عن منهج سيّدي محمد قمار في التربية الذوقية نابعةً من تجربته الشخصية، حيث كان كثيرَ التنقل سواءً في مدن تونس أو في العديد من بلدان العالم، فساعده ذلك في مقارنةِ أسلوب الشيخ قمار في التربية مع أساليب غيره من المقدّمين

فقال: "الشيخ سيّدي محمد قمار بدأ من سيّدي الحاج الأحسن وبنى عليه، حيث جعل من الإراءة أساسًا مشْتَرَكًا بين كلّ المريدين، رغم أن ما ورد في الإراءة وما أفصح عنه الشيخ البعقيلي يعدّ محل إنكار عند بعض مقدّمي الطريقة ومن الأسرار التي يجب كتمها في حين أنّ بعض المقدّمين كانوا يرون أنّه لا بدّ من التّدرُّج شيئا فشيئا مع الفقير، فلا تعطيه "الأسرار". فَطَرَحَ كلَّ هذه الأوهام جانبا، وعَلِمَ أنّ الزّمنَ زمنُ علمٍ وأنّ الناسَ متلهّفةٌ للعلم، فارتقى بهم مراقي عاليةً جدّا". وهو منهجٌ يتناسقُ وينسجمُ مع مساره العام المتمثّل في تكوين جيلٍ مطبوعٍ على الإخلاص، يعبدون الله من غير غرضٍ مهما رأوْا ومهما سمعوا لا طمع يحركهم في عبادة ربّهم. فأزاح عنهم الاعتقادَ في وجود الأسرار[1] ويقول لهم: "ليس عندنا إلاّ العلم". ويقول لمن لم يُقنعه ذلك: "أفضلُ ما في خزائن الرّحمان: الطريقة التجانيةُ، وقد أعطاها لنا فعن ماذا تبحث"؟ فكان يُزَهّدُهم بحاله ومقاله في ما سوى الله، زهدًا ذوقيّا فقط وليس زهدًا سلوكيا. فقدّم لهم كلَّ الكتب التي كان يراسلُه بها الشيخ سيّدي الأحسن رغم ما كان يقول عنها بعضُ المقدّمين من

---

[1]–السر هو إخلاص العمل لله وحده دون غرض ودون التعويل على ذات العمل.

أنّها مليئةٌ بأسرار الطّريقة. فكان يقرؤها على الملإ في جامع الزيتونة وفي الزاوية ويحُثُّ تلامذته على قراءتها باستمرارٍ دائمٍ.

المداومة والمطاولة:

قال الشيخ قمار: "يجب المداومةُ على المطالعة دائما وما قرأناه البارحةَ نُعيدُه اليومَ وغدًا، لأنّ الفهمَ يتبدّل ولأنّ كلامَ العارفين يُدْرَكُ شيئا فشيئا، ويصلُ الفقيرُ إلى المقصود بالمداومة، انظر الحبل على الحجر فإنّه يؤثّر فيه بطول الزّمن، كذلك المداومةُ على التفكّر، فلا يقرأُ الواحدُ منّا قراءةً عابرةً بل يلزمه أن يقرأ ويتفكّر، وإذا لم يقرأ فإنّه يتراجعُ عوض أن يتقدّم، وانظر العلماءَ دائما يقرؤُون". وكانت سيرة الشيخ قمار تؤكّد أنّ عملَه يوافقُ قولَه، حيث أنّه كان لا يَفْتُرُ عن قراءة المراجع والمصادر التي اختارها لنفسه ولتلامذته. وكان كثيرَ المذاكرة مع تلامذته في مضامين هذه المصنّفات، فكان يغتنم اجتماع تلامذته ولو النّفر القليل وفي الوقت القصير ليفتح كتابًا من الكتب المذكورة سابقا أو يتناول مسألةً علميّةً إمّا في الفقه أو في السّيرة أو في أذواق الطريقة ومقاصدِها. ومن أمثلة حرصه على اغتنام الفرص لذلك، ما يرويه عنه خليفتُه سيّدي الحاج الحبيب بن حامد، قال: "كُنَّا ننتظر أن

نسافر، فقال رضي الله عنه لسيّدي خالد: أعطه الكتابَ ليقرأ. ثمّ قال: والله في هذه الدنيا ولو لحظة. ففهمتُ منه أنّه يحبُّ أن لا نُضيّع ولو لحظةً في هذه الدنيا إلاّ في تعلُّمٍ أو ذكرٍ فهو أنفعُ وما سواه فلا عبرةَ له". كما عمل الشيخ قمار على حثّ تلامذته ودفعِهم إلى هذا المنهج في الدروس السريعة والتلقائية، فيقول لهم: "اقرأ ولو ورقةً في اليوم". كما يؤكّد على عمق الإدراك للمعاني والعِبَرِ الواردة في هذه المصنّفات العلمية، فيقول: "إنّي أقولُ وأعيدُ كلَّ هذا مع أنّكم تعرفونه كلّه وتقرؤونه لكنّ المهمّ هو التطبيقُ، يجب على كلّ واحد أن يتفكّر قليلا ويُعْمِلَ فكره ويقرأ بتأمّل واعتبار". كما أنّه يفصل فصلا كلّيّا بين الفهم والإدراك وبين قدرة التعبير عن هذا الفهم والإدراك. فمقصودُه من هذا الحثّ على التعلّم لم يكن إكسابَ تلامذتِه قدرةً خطابيّةً، بل إدراكَهم في أنفسهم للفُهوم التي تستقرّ في القلوب والأذهان، فتزيدُ المريدَ عبوديّةً لله وتزيدُه تمسُّكاً بالشريعة وحرصًا على العمل بها. أمّا طلاقةُ اللّسان في التعبير عن تلك المعاني فهي بالنسبة له ليست معيارًا لدرجة الفهم، وليست مقصودة لذاتها ويقول في ذلك: "الفقراء الآن كلهم يستطيعون الفهم، فإن كنت أنت مثقّفا مثلاً وتقول لا أستطيعُ

الفهمَ، فما بالك بغيري؟ فنعم ربّما ثمّة من يفهم أكثرَ منك لكن ليس له تلك الطّلاقةُ في اللسان فلا يستطيع أن يعبّر عن فهمه، فيجدُ في قلبه فرحا لكنّه لا يستطيع أن يعبّر عنه. فإذا كان الحديث مثلا فيه مائة فهم فإنّه يدرك كلَّ يوم رُبعَ فهم وغدا نصفَ فهم ... ومن الممكن أنّك أنت تقرأُ له وهو يفهمُ أكثرَ منك". كما كان الشيخ سيّدي محمد قمار يعتمدُ أسلوبَ المداومة من أجل ترسيخ بعض المسائل المركزيّة في الطريقة وفي الفقه وفي الآداب والسّلوك، فكان يُعَايِنُ الخطأ المتكرّر من تلامذته ثمّ يصلحه على مراحل مستمرّة، فيُبْدِي الملاحظةَ ويكرّرُها ويذكِّرُ بها مرارا وتكرارا، الأيّامَ والأسابيعَ والأشهرَ حتى تصبح سلوكا تلقائيّا عند مريديه وتلامذته.

الربط بين حلقة الذكر والعلم:

يقول سيّدي الحاج الحبيب بن حامد: "وقد سَنَّ سيّدي الحاج محمد قمار رضي الله عنه سُنّةً حميدةً تعلّم الناس منها علمًا غزيرًا نافعًا، وهي قراءةُ كتب الشيخ البعقيلي رضي الله عنه بعد الفراغ من الوظيفة مباشرة، وهذه خصلة قد انفرد بها الشيخ قمار رضي الله عنه، ألاَ وهي القراءة لبضع دقائق من الحديث النّبويّ الشّريف، أو من كتب سيّدي الحاج الأحسن

رضي الله عنه، أو من كتاب جواهر المعاني. وهذا يثير في الفقراء سرّا عجيبا جدّا وها نحن والحمد لله مواصلون على ذات النهج والمنهاج".

وذَكَرَتْ دراسةٌ عن الطريقة التجانية في تونس نحوًا من هذا[1]. كما أكّد صاحبُ تلك الدراسة أنّ "قراءة كتب الطريقة فلا نجدها إلاّ في زاوية باب الخضراء، وتقتصر بقية الزوايا على الذِّكر فقط"[2]. وزاوية باب الخضراء هي الزاوية التي يشرف عليها الشيخ سيّدي قمار. والمقارنةُ تُبَيِّنُ أنّ الرّبْطَ بين الذِّكر والعلم خصيصةٌ تميّزت بها المدرسةُ القماريّة في تونس. فلا نجدُها عند بقيّة التجانيين من غير هذه المدرسة. إلاّ أنّ الخصلةَ لم تعد مقصورة على زاوية باب الخضراء، بل أصبحت سُنَّةً عند كلّ من انتسب للشّيخ سيّدي محمد قمار. فحيثما كانوا في مختلف مناطق البلاد، فإنّهم يُتْبِعون ذكرَ الوظيفة اليومية بقراءة ما تيسّر من كتب الطريقة أو الحديث سواء كانوا يذكرون في زواياهم أو مجتمعون للذّكر في منزل واحد منهم. ويفسّر سيّدي الحاج الحبيب بن حامد تمسُّك الشيخ

---

[1] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس ص 107-108.

[2] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس ص 111.

سيّدي محمد قمار بهذه المسألة فيقول: "قال لي: إذا ما قرأنا جماعة، فهذا يختلف كثيرا عمّن كان يقرأُ وحدَه". وبهذا يكون قد أرجع أصلَ المسألة إلى السُّنّة، وفعلا هي من السُّنّة لأنّ فيها الجماعة. فالشيخ قمار باعتباره مربّيا، كان يرى أنّ فائدة الدّروس الجماعيّة أبلغُ في التعلّم من الاجتهاد في الدّرس أو القراءة الفرديّة. وهي حقيقةٌ علميّةٌ تؤكّدُها العديدُ من الدّراسات التربوية، بالإضافة إلى أنّ هذا الأسلوبَ يتلاءم مع طبيعة الحياة الاجتماعيّة لتلامذته ومريديه، والتي أصبحت تستهلك جلّ أوقاتهم، فيكون الدّرسُ الجماعيُّ اليوميُّ إثر الذِّكر حلاًّ عمليًّا لضمان استمرار حصول التراكم المعرفي دون أن يستدعي ذلك منهم تخطيطا مسبقا أو يأخذ منهم حَيِّزا زمنيًّا مُلَاحَظًا خلال الحركة اليوميّة لحياتهم الاجتماعيّة، فلا تُسَبِّبُ لهم مسألةُ التّعلُّمِ على هذا النّحو عِبْئًا نفسيًّا. كما أنّ هذا الأسلوب الذي يعتمدُ أساسا على قِصَرِ الدّرس مع الاستمرارية، امتثالا لسُنّة النّبي صلّى الله عليه وسلم حيث قال "أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ"[1]، وتحقيقا كذلك للمقصد العام

---

[1] – البخاري: الصّحيح كِتَاب الرِّقَاق، بَاب الْقَصْدِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ، الحديث رقم6464، ص1240.

من الطريقة التجانية، وهو التعبّدُ لله والتجرّدُ ممّا سواه، لأنّه يحملُ في عمقه بُعدًا تعبّديا مُهِمًّا يتمثّل في اشتغال الشيخ قمار على الجوانب النفسية الخفيّة لتلامذته، وينسجم مع "مبدإ مقاومة الأنانيّة وحبّ التّميُّز". ذلك أنّ استمرارَ هذه الدّروس يضمَنُ حصولَ الإضافة المعرفيّة عبر التقادُم الزمني كما يضمَنُ في المقابل عدمَ وعيِ المريد بكمِّ التحصيلِ العلميِّ والمعرفيِّ لديه، لأنّ هذه المعارفَ قد حصلت عنده تدريجيّا بحيث أنّه لا يشعرُ بحصولها عنده أصلاً، فلا يرى نفسَه عالمًا أو متميّزًا عن غيره بفضل ما حصل لديه من معرفةٍ شرعيّةٍ أو ذوقيّةٍ. وبذلك يضمَن الشيخ لتلامذته الأمنَ من آفةِ العُجْبِ التي كثيرا ما تَتَسرّبُ للمريد بتحصيله جملةً من المعارف والعلوم الشرعية، خاصّة ذلك الذي كرّس فترة زمنية محدّدة لدراسة فنٍّ من الفنون فإنّه يحصل عنده اعتقادٌ أنّه متميّزٌ في ذلك الفنّ وأنّه به خبيرٌ وهو أمرٌ يخالف التربيةَ الذّوقيّةَ القائمةَ على الإخلاص التي يريدها سيّدي محمد قمار عند تلامذته عملا بقاعدة "حبّ الظّهُور قاسمُ الظُّهُورِ" التي يشتغل عليها أهلُ التّربية الباطنيّة الذّوقيّة.

نَتَائِجُ التّجريد القماري

في تونس

الإِقبال العددي والانتشار الجغرافي:

الإقبال العددي[1]:

ذكرنا سابقا أنّ عدد المنتسبين إلى الطريقة التجانية في تونس قد تراجع بشكل حادّ حتى صار في ثمانينات القرن الماضي لا يتجاوز النّفرَ القليلَ. فكانت حلقة ذكر الوظيفة التجانية في جامع الزيتونة لا تضمّ سوى عدد قليل من الذاكرين، ثمّ بدأ العدد يرتفع تدريجيّا مع ظهور الشيخ سيّدي محمد قمار بصفته شيخ تربية في الطريقة التجانية. فكان الوافدون عليه بدايةً أولئك الذين لهم ميلٌ طُرُقي سواء بالانتماء الفكريّ والحسّ الدّينيّ العميق أو الولاء الاجتماعي. ومثّلت شخصيّةُ الشيخ سيّدي محمد قمار في هذه الفترة المُحَفِّزَ

---

[1] – ما هي الأسباب الرئيسية لهذا التراجع: المراجع.

الأساسيَّ لهذا المدِّ العدديّ. فكان الكثيرون يقصدونه للتّتلمذ له، لا لأنّه ينتمي للطريقة التجانية، بل لأنّ له شخصيّةً مُقْنِعةً ذاتَ حضورٍ وجدانيٍّ قويٍّ وصدق فياض فكان تلاميذه ومن يطلب منه الدعاء أو البركة أو يوضح له مسألة ما كانوا من مدارس شتّى صوفية وغيرها. ويخبرنا أحد تلامذة الشيخ قمار من الذين أخذوا عنه في بداية الثمانينات عن ذلك فيقول: "كنت أُخْبر أصحابي ممّن كانوا يبحثون عن شيخ التربية، فأقول لهم لقد وجدت لكم مربّيا كأنّه من أصحاب النّبي صلّى الله عليه وسلّم". ثمّ في مرحلة تالية يأتي البعدُ الفكريُّ في استقطاب شرائحَ أخرى من المريدين وتلعبُ المدوّنةُ البعقيليّةُ التي يروِّج لها الشيخ قمار دورًا مهمًّا في هذه المرحلة. فقد اعتمد الشيخ سيّدي محمد قمار على مضامينِ هذه المدوّنةِ الشّاملةِ المتنوّعةِ في طرح أفكار الطريقة التجانية وتصوّراتِها الوسطيّةِ المتمثّلةِ لروح العصر مقابلَ الطرح السّياسي للإسلام الذي يقدّم نفسَه ممثّلا للدّين في الأوساط المثقّفة[1] أو الطّرح العَلْمَانِي الذي كان يُرَوَّجُ بين المثقّفين أنّ الدّينَ مناقضٌ للعقلانيّة العلميّة ويُقَدَّمُ التصوّفُ على أنّه فكرٌ خرافيٌّ وأنّه من

---

[1] – التّميمي: تونس من 1956م –1987م، ص 166–169.

أهمّ عواملِ التخلّفِ العربيّ الإسلامي. ويخبرنا العديد من رُوّاد زاوية باب الخضراء عن التحوّل النوعي في قناعاتهم الفكريّة بعد اطّلاعهم على المدوّنة البعقيلية وأطروحاتها التي تتوافَقُ مع العقل ولا تتصادمُ معه خاصّة أولئك الذين كانوا طلاّبا بين سنتي خمس وثمانين وخمس وتسعين من القرن الماضي[1]. فالتّجاني الذي تُقَدِّمُهُ هذه المدوّنةُ هو شخصٌ مقبلٌ على ربّه، محبٌّ للحياة، متسامحٌ، شديدُ التّمسّك بأصالته وهويّته، نفّاعٌ للآخرين، آخذٌ بأسباب عصره منسجمٌ معه، بخلاف الشّخصيّة الصّوفيّة التي يقدّمها المستشرقون والعلمانيّون على أنّها شخصيّةٌ سلبيّةٌ تتّصف بالخمول والانطواء. كان ذلك يدلّ بشكل جلِيّ على نجاح الشيخ قمار في تعديل النظرة للطريقة التجانية من مجرّد إرثٍ فلكلوريّ شعبيّ، إلى التعامل معها باعتبارها نَسَقًا فكريًّا واجتماعيًّا هادفًا يتلاءم مع التّنوُّع الثقافي والاجتماعي للمريدين التونسيين، ويؤثّر فيه بدوره. وبعد أن كان الإقبالُ على الطريقة التجانية يكاد ينحصر في المُسِنِّين وفي ذوي المستوى الثقافيّ البسيط، أصبحت الطريقة التجانية

---

[1] – هي فترة شهدت فيها الجامعة التّونسيّة خطابا إديولوجيّا حادّا يرتكز على الفكر السّياسيّ. المصدر السّابق، ص168–169.

محلّ اهتمامِ أصحابِ الثقافات الحديثة وخرّيجي الجامعات المختلفة، فتتلمذ للشّيخ سيّدي محمد قمار معلّمون وأساتذةٌ بشتّى اختصاصاتهم ومهندسون وأطبّاء وخبراء في شتّى المجالات وكثير منهم متحصّل على شهادات جامعية عُليا كشهائد الكفاءة في البحث أو الماجستير أو الدكتوراه.

تأتي المرحلة الأخيرة من الإقبال العدديّ على الطريقة التجانية من خلال شخصيّة الشيخ قمار. زمنيًّا، كانت هذه المرحلة خلال السنوات الأخيرة من حياة الشيخ. ويصف خليفتُه سيّدي الحاج الحبيب بن حامد هذه المرحلة فيقول: "تمّ فتحُ الله على يديه البلاد، وأقبل الناس عليه لتلقي الطريقة التجانية والتربية، ومن صفاتِهم أنّهم كانوا شبابًا وكهولاً، نساءً وحتى أطفالاً، وهذه مزيّة أخرى، إذ ليس من السّهل أن يأتي أطفالٌ صغارٌ في السّنّ إلى شيخ مربٍّ ليأذن لهم في الطريقة. فأنت ترى الشّابّ منهم يلبس ثيابا من أحدث ما يوجد في عالم الأزياء، وقد جعل شَعْرَه على هيأة التّسريحات الحديثة التي تراها في ذلك الوقت، ومع ذلك فهو جالسٌ أمام شيخه يقرأُ الوظيفةَ جماعةً، وهو يقول: "لا إله إلاّ الله"، وغيرُه يُهدِرُ عمره في اللهو واللعب، فهذه كرامةٌ كبرى. وفي ذلك الوقت كنتَ

ترى الفقيرَ ذاهبًا لملاقاة سيّدي الحاج قمار رضي الله عنه وهو يلبس ثيابا بألوانٍ زاهيةٍ وترى شعره مفرُوقًا وما إلى ذلك، ومع ذلك فلا تفوتُه الوظيفةُ جماعةً مع الشيخ رضي الله عنه. وقد حَسُن حالُ الجميع ممّن أخذ عنه الطريقة بصدق". والمعاينةُ الميدانيّةُ تُثْبِتُ ذلك، كما أنّ الكثيرَ من تلامذة الشيخ قمار يؤكّدون أنّهم أخذوا عنه في سنٍّ مُبكّرةٍ جدّا، فمنهم من كان أخذُه للطريقة في المرحلة الثانويّة، ومنهم من كان في المرحلة الإعداديّة. كما أنّ شهادةَ سيّدي الحاج الحبيب بن حامد تؤكّد أنّ الشيخ قمار قد أخرج الطريقة التجانية من دائرة الاهتمام الفرديّ الضّيّق إلى مجالٍ أوسع، لتُصبح في دائرة الاهتمام الأُسَرِيّ. فأصبح هناك أُسرٌ تجانيّةٌ بدل أفرادٍ تجانيّين، وهذه النقطة لها بُعدٌ تربويٌّ مهمٌّ جدّا. فاجتماع الأسرة على فكرٍ واحدٍ وشيخٍ مربٍّ واحدٍ يجعلُها أسرةً متماسكةً تنشأ فيها الناشئةُ على تعاليم شرعيّةٍ سليمةٍ تتّسم بالوسطيَّة والتّجذُّر الفكريّ العميق، فتكونُ الطريقة التجانية حِصْنًا منيعًا ضدّ الغزو الفكريّ والغزو التاريخي الذي يهدف إلى فَصْلِ النّاشئة عن جذورهم الثقافية والاجتماعية، ومن جهة أخرى فإنّ احتضانَ الأُسَرِ التونسية لهذه الطريقة يضمَن لها استمرارَ التواجُدِ في هذه البلاد، خاصّة

أنّ هذه الطريقة تاريخيًّا تُعدُّ جزءا من البناء الثقافي والاجتماعي للبلاد التونسية كما هو الحال للتفرعات الثقافية والفكرية للمذهب المالكي في تونس.

الانتشار في عُمق البلاد:

تتحدّث المصادرُ عن وجود الطريقة التجانية في عمق البلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. فقد كانت هذه الطريقة منتشرةً في البلاد من شمالها إلى جنوبها. ولكنّ اللافت للانتباه هو ما سجّلته هذه المصادرُ عن تواجُدِ هذه الطريقة في الوسط التونسي (القيروان، القصرين، الكاف) سنة 1925م، حيث بلغ عدد التجانيين في هذه المناطق 7943 مريدا مقابل 8151 مريدا موزّعين في جميع مناطق البلاد التونسية[1]. ولكن مع بداية السبعينات من القرن العشرين أصبحت هذه المناطقُ خالية من هذه الطريقة تقريبًا باستثناء أفرادٍ لم يبق لهم من معالمِ هذه الطريقة سوى الولاءُ الأدبيُّ لمؤسّسها كما يخبرُنا بعضُ أهالِي هذه الجهاتِ من تلامذة الشيخ قمار.

[1] – العجيلي: الطرق الصوفيّة والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسيّة، ص 44.

ثمّ بدأت الطريقة التجانية تعودُ تدريجيّا لهذه المناطقِ بفضلِ الشيخ سيّدي محمد قمار الذي كان مستقرّا في عاصمة البلاد. ولَعَلَّ اتّخاذَه جامعَ الزيتونة مركزا له لسنواتٍ عدّة قد أسْهَمَ بشكل فعّال في هذه العودة، لأنّ جامع الزيتونة يُعَدُّ قبلةَ الزّائرين لعاصمة البلاد. فكان من اليسير أن ينْتَقِلَ نبأُ ظهورِ شَيْخٍ مربٍّ في الطريقة التجانية إلى عُمق البلاد عن طريق الزّوّار لجامع الزيتونة. من هنا كان المهتمّون بأمر الطريقة يَفِدُون عليه من هذه المناطق الداخلية للأخْذِ عنه والتَّتَلْمُذِ له. وبذلك يكون الشيخ سيّدي محمد قمار قد أسّس نواتات تجانية بعقيليّة في هذه الجهات، وصار له تلاميذ في العديد من ولايات البلاد التونسية مثل ماطر، سوسة، السواسي، القيروان، القصرين، صفاقس، الكاف، جربة وتوزر، وهو أمرٌ نلاحظه في زاوية باب الخضراء خلال المناسبات الكبرى مثل المولد النّبوي الشريف حيث نجد أنّ عُمَّارَ الزاوية في هذه المناسبات ينتمون إلى جُلِّ جهات البلاد وكذلك من خارج البلاد مثل ليبيا والجزائر والمغرب.

الأثر الفكري والذّوْقي:

انْتِشَارُ المُدَوَّنَةُ البعقيلية:

كان نشرُ هذه المدوّنة من الأهداف التي اشتغل عليها الشيخ قمار كثيرا. فكان يطلب من كلّ من أخذ عنه الطريقة أن يقتني كتابَ [الْإِرَاءَة] وكتابَ [الشُّرْب الصَّافِي][1] وكتابَ [سَوْق الْأَسْرَار]. لذلك أقبل تلامذةُ الشيخ قمار على اسْتِنْسَاخِ هذه الكتب، لأنّ المطبوعات الأصليّة لم تكن متوفّرةً، فصار التَّتَلْمُذُ للشّيخ قمار يعني بالضرورة تبنّي المدوّنة البعقيلية. ومن ثمّة أصبحت كتب الشيخ البعقيلي تتواجد حيثُما وُجِد تلامذة الشيخ قمار، فحقّق لها ذلك انتشارا في جلّ مناطق البلاد التونسية تَوَازِيًا مع عودة الطريقة التجانية في تلك المناطق على يد الشيخ قمار، بل إنّ هذه المدوّنة البعقيليّة أصبحت مصدرًا ومرجعًا لعددٍ من البحوث في الجامعات التونسية بل وموضوعًا لها أحيانًا. ولمّا تزايد الطّلب على هذه المصنّفات البعقيلية بتزايُد عدد تلامذة المدرسة القماريّة، تمّت إعادةُ طباعة بعضِها طَبْعة ثانيةً في دُورِ نشرٍ تونسيّةٍ، ككتاب [الْإِرَاءَة] وكتاب [سَوْقُ الْأَسْرَارِ]. وكتاب [الإشْفَاق] وكتاب [رَفْعُ الخِلاَفِ والغُمَّة].

[1] – العمدوني: الطريقة التجانية في تونس ص 104.

ترسيخ عمق إيماني ذوقيّ:

تعجُّ المدوّنةُ البعقيليّةُ المعتمدةُ عند تلامذة الشيخ قمار بمفاهيمَ دقيقةٍ حول مقاصدِ الطريقة التّجانية، مثل عبادة الله من غير طلب نوالٍ، أو السّعي المستمرّ أبدًا في تعميق درجة الإخلاص، وما شاكل ذلك من مقاصد الشيوخ وأهدافهم. ونبحث في هذه الفقرة عن نتائجِ جهودِ الشيخ قمار في تَنْزِيلِ هذه المبادئ من المستوى النظري المقرَّرِ في المدوّنة البعقيلية إلى المستوى التطبيقي العملي عند تلامذته، وهذا أمرٌ يختلف عمّا تقدّم من النتائجِ التي كان بالإمكانِ التّوصُّلُ إليها عن طريق الدّرسِ والبحثِ والمقارنةِ والاسْتِقْرَاءِ، في حين أنّ العُمْقَ الإيمانيَّ والذّوْقيَّ لا يستطيع الباحثُ أن ينفَذَ فيه إلى قرارٍ لعدمِ تملُّكِه الضوابطَ والمعاييرَ المحدَّدةَ له، فكان من الضروري أن نلجأ إلى أرْبَابِ الطريقة التجانية لنقف على نتائجِ جهودِ الشيخ قمار في ترسيخ العمق الإيمانيّ والذّوْقي عند التجانيين في تونس.

يُعتبر أحفادُ الشيخ سيّدي أحمد التّجاني من العناصر الذين لهم ثِقْلٌ معنويٌّ هامٌّ في الطريقة التجانية على الصعيد العالمي، حيث أنّهم "لهم حضورٌ خاصّ وإشرافٌ رُوحيٌّ على

بقيّة الزوايا في العالم، لاسيما دولُ شمالِ إفريقيا وغربِها[1]".
ومن هذا المنطلق يُعتبرُ تقويمُهم للعمق الإيماني والذّوْقي عند تلامذة الشيخ قمار أمرًا مهمًّا، خاصة إذا أدخلنا في الاعتبار أنّ هذا التقويمَ ينبثقُ من مقارنةِ المدرسة القمارية التجانية في تونس مع بقيّة مدارس الطريقة التجانية في العالم. وكُنّا قد بيّنّا سابقا أنّ الشيخ قمار كان يحتلُّ مكانةً خاصّةً عند أحفاد الشيخ الأكبر سيّدي أحمد التّجاني، فتتلمذ له الكثيرون منهم، ولكن كيف كانوا ينظرون إليه؟ وكيف كانوا ينظرون إلى تلامذته؟

يجتمع جميع أحفاد الشيخ سيّدي أحمد التّجاني الذين اجتمعوا بتلامذة الشيخ قمار في الإعجاب بمَدَى تمسُّكِ هؤلاء التّلاميذِ بالمبادئ التي أسّس عليها سيّدي أحمد التّجاني طريقته من إخلاصٍ في العبادة وإسقاطِ الأغراض مع الله، بل إنّ أحدَهم قال: "إنّي أَعْجَبُ من تلامذة الشيخ قمار يأتون ليُسلِّمُوا علينا فقط ولا يطلُبُون منّا لا أسراراً ولا أذكاراً خاصّةً"[2]. يقول

---

[1]– العمدوني: الطريقة التجانية في تونس ص 109.

[2] – هذا القول صدر من سيّدي ياسين التّجاني أحد أحفاد الشّيخ سيّدي أحمد التّجاني المقيمين في مدينة عين ماضي بالجزائر، وقد نقلناه ممّن سمعه منه خلال زيارته لتونس سنة 2000م.

ذلك بإكبارٍ وإعجابٍ، لأنّه يستنتج من ذلك أنّهم لا يريدون من الطريقة التجانية إلاّ التعبُّدَ لله فقط. وهذا إقرارٌ من أحفاد الشيخ سيّدي أحمد التّجاني بأنّ الشيخ قمار قد أكْسَبَ تلامذتَه عُمقًا إيمانيًّا وملَكَةً ذوقيَّةً توجّهُهم إلى تتبُّع المقاصدِ الأصليّةِ في الطريقة فحسب. كما نقف على تقويمٍ آخرَ لهذا الجانب عند تلامذة الشيخ قمار، من أحدِ أعلام الطريقة التجانية وواحدٍ من كبار شيوخِها وهو الشيخ سيّدي محمد الكبير بن الشيخ الأحسن البعقيلي.

قال الشيخ سيّدي محمد الكبير خلال حديثه عن تلامذة الشيخ قمار في تونس: "أوّلاً: لنعرف أنّ الناس البُعَدَاء عنّا يعرفون عنّا أكثرَ ممّا نعرفُ عن أنفُسِنا بل يعرفون الشاذّةَ والفاذَّةَ، يعرفون من صِغرنا وترْبِيَتِنا وكِبَرِنا إلى آخر ما لا نعرفه نحن عن أنفُسِنا. ثانيا: أولئك الناسُ يعرفون الكتبَ التي ألّفها الوالدُ كلَّها ويعرفونها بدقائقها وما تحتوي عليه وما تضمّنته، وهم يشربونها شُربًا ويلبسون حُلّتَها لباسًا ويتذاكرون فيها ليلا ونهارا، لا يفترون عن ذكرها. والأمرُ الثالثُ الذي هو أهمُّ من هذا، أنّ هؤلاء الناس ليسوا رجالاً فحسب بل إنّ كلَّ عائلاتِهم معهم، زوجاتُهم وبناتُهم وأولادُهم كلُّهم فقراء،

يُحْضِرونهم معهم دائمًا في المجالس. فما كان مجلسُنا إلاّ ويكون النّساءُ به، حتى إذا خرجنا إلى مكان ما يكون نساؤهم برفقتهم معنا، لأنّه كما نقول دائما: إذا كانت المرأة وراء السّتار يكون الرّجل ليس وراء السّتار بل وراء الحديد. إذا لم تكن المرأة مع الزّوج تشاركه في ما هو فيه يكون الزّوجُ له شِقٌّ واحدٌ من الشِّقَّين اللذيْن عنده، شِقٌّ عاملٌ وشِقٌّ مشْلولٌ... ونساؤهم مُثقَّفاتٌ وأغلبُهُنّ فقيهاتٌ، والأكثرُ من هذا أنّهنّ مفتوحٌ عليهنّ، ما من واحدة تحدّثُكَ إلاَّ وتحدّثُكَ عن عوالمَ وتسمعُ لها، وسَبَبُهُ أنْ أَعْطَتْ كُلَّهَا إلى الله فأعْطَاهَا الله". ثمّ يواصل الشيخ سيّدي محمد الكبير استعراضَ حوصلةِ هذه المرحلة، فطلب من أحد الحاضرين أن يقرأ رسائلَ التّرحيب التي تلقّاهُ بها تلامذةُ الشيخ قمار في تونس ويُعلّقُ عن إحداها فيقول: "ما نفهمه من هذه الرّسالة أنّ هؤلاء النّاس شَرِبُوا وارْتَوُوا وعَلِمُوا وثَبَتُوا، عَرفُوا الحقَّ فاتّبعوه وأخلَصُوا العملَ لله وأحْسَنُوا نيَّتَهم في قُدْوَتِهم فكان منهم الصّابرُ والصّادِقُ والشّاكِرُ، وهم لا يخْلُو منهم مكانٌ، لا بدّ من الصابرين والشاكرين، لا بدّ منهم في كلّ زمان ومكان".

يجدُرُ بنا أن نُشير إلى أنّ هذا التّقييمَ الذي استفدناه من كلام الشيخ سيّدي محمد الكبير البعقيلي والذي كان يتناول

العمقَ الإيمانيَّ الذي جذَّره الشيخ قمار في تلامذته وكذلك بعضَ الجوانب التّجديديّة التي اشتغل عليها الشيخ قمار في تونس، يشملُ كلَّ من انتسب للشّيخ قمار في تونس، سواءً الذين أخذوا عنه خلال حياته أو الذين أخذوا عن خليفته سيّدي الحاج الحبيب بن حامد بعد وفاة الشيخ قمار.

ظُهور مدرسة تجانية قماريّة تونسية:

إنّ الضغط الماديّ والمعنوي الذي سُلِّطَ على الطرق الصّوفية خلال فترة الاحتلال وفي عهد جمهورية الاستقلال، جعل من الصعب جدّا أن يُشكّل التجانيون التونسيون وحدةً معنويّةً مترابطةً أي مدرسةً تجانيّةً مستقلّةً، أو ما يسمّيه الطُّرُقِيُّون "مشيخة تجانيّة تونسيّة". وهنا يأتي الفارق الذي أحدثه الشيخ قمار على مستوى الروابطِ الأدبيةِ بين تلامذته، فقد التفّوا حوله وأخذوا بتعاليمه وإرشاداته وتوجيهاته، حتى صاروا يُمَيَّزُون بالمنهج القماري. وكان حريصًا عل جمعهم من بعده على رجلٍ واحدٍ. فلم يُجِزْ إلاّ واحدًا فقط، هو خليفتُه سيّدي الحاج الحبيب بن حامد، فأجازه إجازةً مُطْلقةً يكلّفه بموجبها بإمامة المدرسة التجانية القماريّة التونسية من بعده.

وكان يشير مراراً وتكرارًا إلى أهليّة تلميذه لهذا الأمر، سواءً أمام بقية تلامذته أو أمام الضيوف الوافدين عليه من خارج القطر، كأحفادِ الشيخ سيّدي أحمد التّجاني أو أحفادِ الشيخ سيّدي الحاج علي التماسيني أو سائر المقدّمين فيقول مشيرا إليه: "هذا من رجال المستقبل". وبعد وفاة الشيخ قمار، التفّ تلامذته حول خليفته سيّدي الحاج الحبيب بن حامد ورأَوْا فيه ذات شيخهم، فنزّلوه منزلته. ولم تجد الأوساطُ التجانية حرجًا في تقبّل هذا الأمر. وتولّى تلامذة الشيخ قمار شؤون الطريقة في تونس بقدر كبير من الاستقلالية قلَّمَا وُجِدَ سابقًا. وأصبح التفافهم حول خليفة شيخهم يُشَكِّلُ "مدرسة تجانيّةً تونسيّةً". وقد صار لهذه المدرسة القماريّة البعقيليّة صدًى مُهمّ على المستوى العالميٍّ، وأصبح الشيخ سيّدي الحبيب بن حامد خليفةَ الشيخ قمار، محلّ ترحابِ وإكبارِ كلّ من عرفه من رؤساء الطريقة التجانية. وتحوّلت زاوية باب الخضراء، تحت إشرافه، إلى مركز إشْعاعٍ تجانيٍّ عالميٍّ، فيقصده التجانيون من أمصار عدّة للتَّتَلْمُذِ له أو التّعلُّمِ منه، خصوصا البلدان الإفريقيّة مثل دولة مالي، حيث جاءه أحد شيوخ الطريقة التجانية ليُجدِّدَ عليه ويَنْتَسِبَ إلى سَنَدِهِ. كما أنّ له تلاميذ في دولة النّيجر، وقد

أجاز أحدَهم إجازةً مطلقةً وهو السيّد مصطفى عثمان النيجيري، وهو من رجالات العلم، مُتَحصِّلٌ على شهادة الدكتوراه في الحضارة الإسلاميّة من جامعة الزيتونة التونسيّة بأعلى علاماتِ التّميُّزِ. كما نجح بشكل بارز في فتح جسور التواصل مع جميع التجانيين في تونس والجزائر والمغرب بمختلف مشاربهم ومدارسهم.

إنّ ما قدّمناه عن ثمارِ ونتائجِ تلك الجهودِ التي أقدم عليها الشيخُ سيّدي محمد قمار، وما بذله من تضحياتٍ جسامٍ لتجديد الطريقة التجانية في تونس، ليس سوى أمثلةٍ فحسب، وأنّ نتائجَ جُهودِهِ التّجْدِيدِيَّة في حقيقةِ الأمرِ لا تزالُ بعدُ في تَشَكُّلٍ مُسْتَمِرٍّ.

خاتمة

لقد قدّمنا في ثنايا فقرات هذا الكتاب صورة إجماليّة عن الشيخ سيدي محمد القماري الذي كان نموذجا يُحتذى في الثبات على المبدأ والتضحية من أجل الفكرة فكانت سيرورة حياته على قدر كبير من التميّز في هذا الباب يذكّرنا بالسلف الصّالح والرّعيل الأوّل الذين كانوا يبذلون النّفس والنّفيس ويهجرون الأوطان ويفارقون الأحبّة من أجل دين الله.

فلقد رأينا كيف أنّ الشيخ قمار هاجر مسقط رأسه وفارق أهله وهو في عنفوان الشّباب طلبا لشيخ مرشد يدلّه على الله، فارتحل من جنوب المغرب إلى شماله ليجتمع بالشيخ الأحسن البعقيلي ويأخذ عنه ويصحبه فلازمه ملازمة خاصّة لمدّة خمس سنوات متّصلة، ليبدأ إثرها رحلة لله كانت وجهتها تونس على وفق توجيهات شيخه سيدي الأحسن ليجد نفسه مدفوعا إلى فراق شيخ وإخوانه بعدما فارق أبويه وذويه ولم يكن ذلك لطلب مال أو جاه بل كان خروجا في سبيل الله على ما عهدناه عند السلف الصالح، فنزل تونس واتّخذها دارا ومقاما هدفه

الوحيد هو نشر دين الله على وفق الأذواق السليمة الراقية التي اقتبسها من شيخه البعقيلي، فعاش في تونس داعيا إلى الله مُهتمّا بإرشاد من ساقه الله إليه من التلاميذ والمريدين صابرا في ذلك على المحن، محتسبا لله كلّ ما يصيبه من شدائد.

وقد أمدّه الله بالعمر المديد ليُرْسي أفكاره ومنهجه بين أجيال عدّة حتى أصبح عَلَما من أعلام المجدّدين في الطريقة التجانيّة، فصار له منهج خاص في التربية وفي تمييز الأذواق الإيمانيّة وأصبحت الأوساط التجانية تتحدّث عن الخصوصيّة القماريّة في تونس.

وقد استمرّت التضحيات الجسام التي أقدم عليه الشيخ قمار تؤتي ثمارها حتى بعد وفاته وقد بيّنا في فقرات هذه الترجمة كيف حمل تلامذته أفكاره ومنهجه من بعده لتتحوّل هذه الأفكار إلى رؤية واضحة المعالم وتوجّه مضبوط المسار يُعبرّ عنه بالمدرسة القماريّة البعقيليّة التجانيّة، ولازالت هذه المدرسة الفكريّة تتفاعل مع واقع البلاد تفاعلا إيجابيّا مثمرا من أجل أن يسود الإسلام الوسطي البنّاء.

ملحق وثائقي

- **رسائل الشيخ الأحسن البعقيلي إلى الشيخ محمد قمار مرتبة حسب التواريخ.**
- **مضمون وفاة الشريف علال التجاني.**

الحاج الاحسن بن محمد
ابن ابي جماعة البعقيلي
السوسي - البيضاوي
درب غلف — الدار البيضاء

يقراء
وانت واحد

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

3   في تاريخ .... 1352 هـ

فاتح صفر

الحمد لله وحده اعز الله سيادة الاعز الارضى المقدم الابر السيد
الحاج محمد بن ابراهيم الافراني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فالله
الكريم يفيض عليكم خير الدنيا والاخرة ويبلغكم منتهى الامال [illegible]
المغرب بسيدنا امير المؤمنين [illegible] حالنا على تمام الاحوال فالله تعالى [illegible] فله
الحمد والمنة [illegible] علينا بنعمة ظاهرة وباطنة [illegible] الشكر
والسيد محمد الكبير [illegible] العلم [illegible] والسيد محمد الكبير جامع
للغزلان والسوق والبنات حافظون للعهد [illegible] وتنسلون [illegible]
[illegible]
وقد [illegible] خونا على [illegible] وغنم [illegible]
[illegible] مقبولة بغاية [illegible]
والمطبعة بخير [illegible]
بخير والسيد عبد الله اخوكم بخير [illegible] والسيد
محمد [illegible] احوال [illegible]
[illegible]
[illegible] بخير والسيد محمد الحبيب بن [illegible]
في مدرسة [illegible] والسيد محمد بن [illegible]
[illegible] ولا زال [illegible]
على [illegible] فالله [illegible]
على [illegible]
لكم [illegible] الروح [illegible]
[illegible] محمد [illegible]

وثيقة رقم 1

وثيقة رقم 1= الإجازة رقم 1

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله صلى الله عليه وسلّم في تاريخ خامس صفر عـام 1352.

الحمد لله وحده أعز الله سيادة الأعز الأبرك المقدم الأبر السيد الحاج محمد بن إبراهيم الأقماري السلام عليكم والرحمة والبركة وبعد فالله الكريم يفيض عليكم خير الدنيا والآخرة ويوصلكم إلى منتهى العارفين وذروة المقربين آمين يليه أن حالنا على أتم الأحوال فالله تعالى يرتضيها فلله الحمد والمنة أعظم الله علينا نعمه ظاهرة وباطنة وأعظمها الشكر والسيد محمد الكبير يقرأ العلم مفتوح له فيه والسيد محمد الكبير جامع للقرآن والبنون والبنات حافظون للقرآن الكريم ونساؤنا بخير كأحبابنا وأنت واحد من أولادنا فقرّ به عينا ولا تظن غيره وقد وصلنا أخونا عليٌّ رسولك بمائة ريال وعنبر وتسابيح هدية لنا ولولدنا فهي مقبولة بغاية ربانية مصحوبة بعز معها والمطبعة بخير وأحوالنا كلها كما تحبها ونحن ندعوا لكم بخير والسيد عبد الله أخوكم بخير عند البروزى له أولاد والسيد محمد نسمع عليه خيرا وأحوال البلد بخير في أمان ورفاهية دينا ودُنيا لا تتشوش وقد اشتقنا لرؤيتكم فبأحبابكم هنا كلها بخير والسيد محمد الحبيب ابن شيخنا برباط الفتح في مدرسة جسوس خادما معه والسيد محمد بن المولى علال نازل عندنا حالته بخير ولازالت الخيرات تنصب علينا كالأمطار فلله الحمد علما وطريقةً وحقيقة فأخبركم على

عادة الأحباب فأنتم أولاد الروحِ وقد أجزنا لكم في مروياتنا في الطريقة وغيره فالله يحفظكم آمين.

الحاج الأحسن بن محمد ابن أبي جماعة البعقيلي السوسي –البيضاوي بدرب غلف الدار البيضاء.

وثيقة رقم 2

وثيقة رقم 2 = الإجازة رقم 2.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أعز الله الأخ في الله المقدم البركة السيد محمد بن إبراهيم الأقماري البعقيلي السوسي السلام عليكم والرحمة والبركة وبعد فالله يديم عليكم ستره الجميل ويفيض عليكم خيره من حيث هو ويقيكم شره من حيث هو آمين يليه إننا على محبتكم والاستعداد لزيادة الإمداد إليكم فإنكم أخص الأحباب الصادقين وقد أجزنا لكم في تلقين الطريقة التجانية والأوراد اللازمة والمسبّعات العشر وكيفيات اللّطيف وصلاة الفاتح مطلقا ومقيدا ويا من أظهر الجميل عشرين مرة لمن أراده وأجزنا لكم في ما ثبت عن الشيخ رضي الله عنه ذكرا وتلقينا بيد أنك لا توضب على نفسك شيئا حتى تستيقن الرجاء به كإخوانك فأنت عضوٌ من أعضائنا فاجتهد في طلب حضرة الله بأنواع الطاعات من غير إفراط ولا تفريط فما ذكرته في شأن الديْن وفي شأن أنك أنبت ابن المعطى في نحوه فلا تشتغل به ولا تبحث عنه حتى تكون هنا مثلا فإن الحانوت فرقه المخزن وبقى تحت يده ما بقى كما علمت لكنه لم يدفعوه لمن طلبه حتى يأتي بالرسم الشرعي فتعذر ذلك عن البعض فبقى فهذا علمي فيما أسمع فأنت على خير فإن اطمأنت نفسك ثمة فاعبد ربك وإلاّ فأتنا فالدنيا لله ولا تبحث على القضية حتى تقابل بعينك فالقضية منسية الآن فإن بحثتها فربما يظهر البحث والذي يظهر أن ذلك لا

يبحث فيه أحد ولا ترانا مغفلا مثله فلا أبحث عنه وما أرسلته على يد السيد المصطفى وصلني كله وإما من جهتنا فنحن بالله لله لا غير فلا تخف إلا من الله وذُل الناس على ربهم بلين ورفق فأمر الكتب فتحت المطبعة التفسير والإراءة فنحن وأولادنا بخير وعليه فلله الحمد والسيد عبد الله أخوك بخير تزوج عند محمد البروزي واستقام أمره وولد بخير وعليه والسيد أحمد نسأل عنه بخير والسيد سعيد بن الطيب بخير كأولاده قد أجزته في الطريقة كولده السيد أحمد وهما بخير وأخبار البلاد بخير وعلى حسن حال اطمأنت نفوسهم بالأمر فلله الحمد على كل حال فالزاوية في الملاح بخير وقد طلبت فيها الجمعة فتكون فيها إن شاء الله والفقراء متوافرون فيها وقد فتح الله أبواب الدين فلله الحمد والسيد محمد الحبيب ولدنا بخير كولد السيد الحاج الحسين اليفريني فالدار البيضاء بفقرائها بخير والمطبعة في غاية الإتقان والخدمة وصلاح الحال كل ذلك بفضل الله فبلغ منّا السلام لجميع أحبابنا أصحاب سيدنا وبلّغ لهم بأننا نحبهم ونجدد لهم الطريقة ظاهرا وباطنا جميعا فلا يخافون فإن الله أحبهم فلا نزال نمدهم بما أمدنا الله به من سرّ الطريقة وسر أسانيدها ممن عرفنا ومن لم يعرفنا فنحن لله الحمد على كمال ما يسرُّ أحبابنا فلله الحمد ولابد

سلم منا على من أحبّنا وأوصيهم بتقوى الله العظيم أواخر صفر عام 1355.

الأحسن بن محمد بن أبي جماعة البعقيلي أمنه الله.

الوثيقة رقم 3

وثيقة رقم 3=الإجازة رقم3

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

أعزّ الله بعز طاعته الأخ في الله السيد الحاج محمد بن إبراهيم الجمارى.

السلام على سيادتكم والرحمة والبركة وبعد فالله الكريم يديم فيكم طاعته وعلمه وسره ونورهِ ورضاهُ ومعرفتَه ويحرسكم مِن شرور كل مخلوق ويوقفَكم بين يديه وقفة العَارفين بالله يليه إننا حمدنا الله لكم لمَّا حججتم وتقدَمْتم على أهل التقوى تلقنون دين الله القويم وتدلون على الوقوف بباب الله بما سنهُ الرسول صلى الله عليه وسلم ولمَّا سلكتم محجَّة وَسَطيَّةً فالله الكريم ينفع بكم العِباد ويهدي بكم أهل وُده ونحن بخير جاءنا سلامكم علينا وعلى أحبابنا ففرحنا به تمامهُ ونعيد السلام عليكم وعلى أحبابكم فإني قد أجزتك في الطريقة ذكرا وتلقينا وجددت سر الطريقة لكل من قبل شروطها في كل وقت سحرٍ فهو عادتي مع ساداتي الفقراء وسلم عليهم وجواب كتابكم يظهر لكم من كلام حبيبنا السيد محمد بن أبي بكر والسيد بن سالم لم يبقى في المطبعة فالكتابة معي فقط والسيد المصطفى تدخل عليه دراهمنا فيأكلها ويضيع المطبعة فلا تكاتبه إلا بذلك فإنه ظهر منه ما لا نحبه من جهة بن سالم اتفقا على شيء غير مرضى فأنتم عندنا مرضيون ومحبوبون فالمطبعة بخير تماما فلله الحمد.

الأحسن بن محمد أمنه الله أول صفر عام 1356.

والسيد عبد الله أخوك بخير عند محمد البروزي له أولاد والسيد أحمد في البلد بخير والقبيلة بخير بيد أن السيد سعيد ابن الطيب توفي نحو عامين وأولاده بخير.

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله

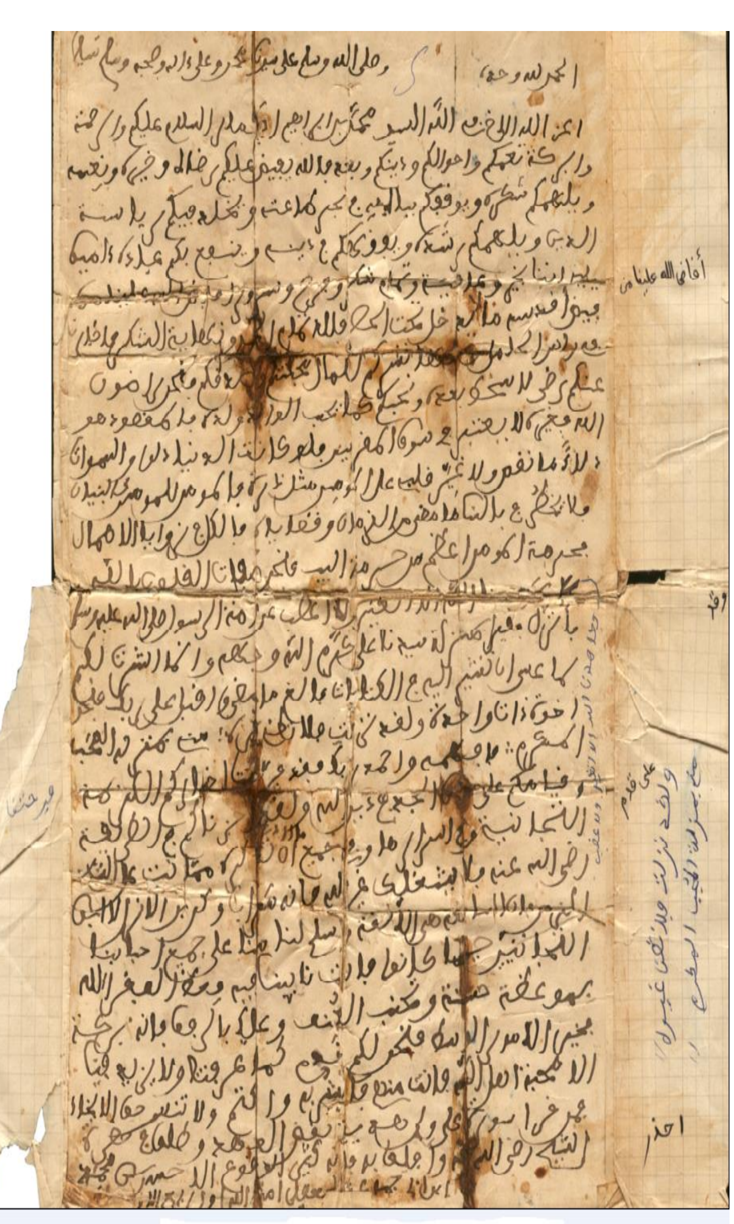
أعز الله سيادة الفقيه الاجل المقدم [illegible]
السيد الحاج محمد الافراني السلام على سيادتكم ورحمة الله
وبركاته تعمكم وأحبابكم أمين وبعد فعلى خير وعليه
والأولاد بخير وعلى نعمة على بعض يقرؤون العلم بجامع
والسيد محمد [illegible] مقابل للاشتغال بعض [illegible]
إن شاء الله والعود كلهم بخير وعلى نعمة ونحن
كما سمعتم أكرمنا الله بحج إلى [illegible] والأخ
[illegible] وإني لنا [illegible] تبعا في محبته
وطاعته ومع [illegible] عليه [illegible] والشكر
[illegible] من الكامل
[illegible] وكل [illegible]
[illegible] وأنتم من الأحباب [illegible]
[illegible] طاعته [illegible]
[illegible]
[illegible] الله [illegible]
[illegible] بكل ما اشتملت عليه اجازتنا
[illegible] السنة النبوية والذي [illegible]
[illegible] من العلوم [illegible]
ومستكملا [illegible]
[illegible] محمد [illegible]

الوثيقة رقم 4

وثيقة رقم 4=الإجازة رقم 4

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله
أعز الله سيادة الشريف الأجل المقدم البركة السيد الحاج محمد الأقمارى السلام على سيادتكم والرحمة والبركة تعمكم وأحبابكم آمين وبعد فأنني بخير وعليه فأولادنا بخير وعلى أتمة فأربعة يقرؤون العلم بفاس والسيد محمد تجانى مقابل لأشغال بعض محلاتنا أعزه الله والفقراء كلهم بخير وعلى أتمه ونحن كما سمعتم أكرمنا الله بخيراته الدنيوية والأخروية وأنزلنا في محل الارتفاع في محبته وطاعته ومعرفته فلله أتم المحامد والشكر يليه أننا تمسكنا بما أهديته 1000 فرنك من الحامل فالله يجازيكم بكل خير ورضاه ونحن ندعوا لكم بكل خير أبداً وأنتم من الأحباب بل أنتم نور أبْصارنا زادكم الله في طاعته وأعزكم بعزّ توفيقه ونحن أجزنا كم في الطريقة فلقنوها بأسانيدها فأسانيدنا في الإراءة وقد أجزناكم بكل ما اشتملت عليه إجازتنا فعليكم باتباع السنة النبوية والإرشاد التام وبالتباعد من الفرق الوقتية وتمسكوا بمذهب أشياخكم القُدمَاء.

الأحسن بن محمد البعقيلي أوائل ربيع الثاني عام 1362.



الحمد لله وحده

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

أفاض الله علينا من

الوثيقة رقم 5

وثيقة رقم 5=الإجازة رقم5

أعز الله الأخ في الله السيد محمد بن إبراهيم الجماري السلام عليكم والرحمة والبركة تعمكم وأحوالكم ودينكم.

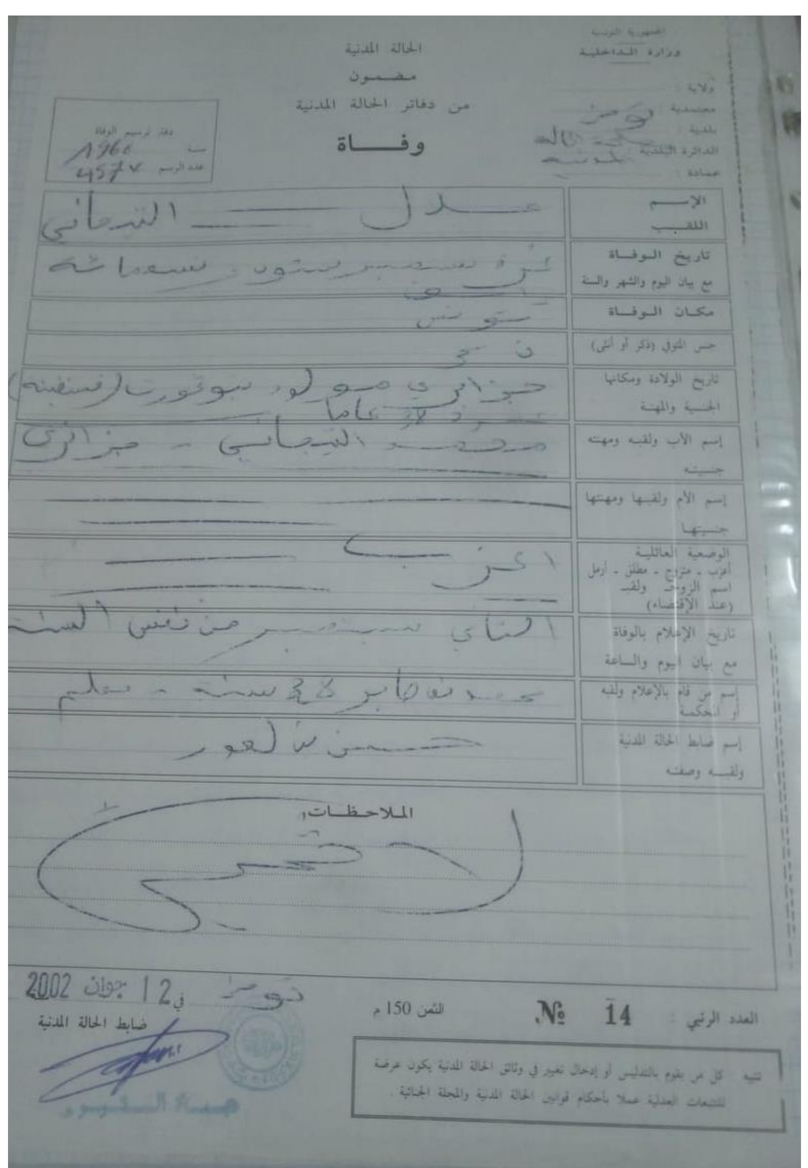
وبعد فالله يفيض عليكم رضاه وخيره ونعيمه ويلهمكم شكره ويوقفكم ببابه في بحر طاعته ويخلد فيكم رياسة الدين ويلهمكم رشده ويفقهكم في دينه وينفع بكم عباده آمين يليه إننا بخير وعافية وتمام شكر وفرح وسرور أفاض الله علينا من فيض أقداسه ما لا يدخل تحت الحصر فلله تمام الحمد ونهاية الشكر فأخبارنا في رأس الحامل كلها تسركم لكمال محبتكم وصدقكم فنحن راضون عنكم رضى لا سخط بعده ونحبكم كما يحب الوالد ولده فالمقصود هو الله فغيره لا يعتبر في سوق المقربين فلو كانت الدنيا دلوا والسماوات دلاءًا ما نقص ولا غير قلبي على المؤمن مثل ذرةٍ فالمؤمن للمؤمن كالبنيان فلا يخطر في بالنا ما مضى من الزمان وقضاياه فالكل في زوايا الإهمال فحرمة المؤمن أعظم من حرمة البيت فنحن صفاة القلوب بالله فعاهدت الله ألا أتغير ولا أغضب عن أمة الرسول صلى الله عليه وسلم فأنزل فقيراَ بمنزلة سيدنا علي كرم الله وجهه وإنما أشرت لكم لما عسى أن تشير إليه في الكتابات فألغ ما مضى وأقبل على ربك فنحن اخوة ذات واحدة ولقد نزلت فلا تظن غيره منى بمنزلة المحب المكرم فافهمه واحمد ربك فقد فرحتنا أخباركم الكريمة وقيامكم على ساق الجد في دين الله ولقد أجزناكم في الطريقة التجانية وفي أسرارها وفي جميع ما أردت أن تذكره مما

ثبت عن الشيخ رضي الله عنه فلا يشغلك غير الله فإنه سراب وكن ابن الأزل لا ابن الزمن فإن السابقة هي اللاحقة وسلّم لنا منا على جميع أحبابنا التجانيين حيث ما كانوا فأنت نائبنا فيه

فعظ الفقراء لله بموعظة حسنة وتجنّب العُنف وعليك بالرفق فإنّه بركة فخير الأمور الوسط فنحن لكم خدم كما عرفتنا ولا يزيد فينا إلاَّ مَحَبة أهل الله فأنت منهم فأبشر به واكتم ولا تنس حق الإخاء فمن قرأ سورة على ولي نقض العهد وطَلَقَ في حضرة الشيخ رضي الله عنه وافلق به فإنه كثير الوقوع.

الأحسن بن محمد ابن أبى جماعة البعقيلي أمنه الله.

أوائل ربيع الأول.



الجمهورية التونسية
وزارة الداخلية

ولاية :
معتمدية : تونس
بلدية :
الدائرة البلدية :
عمادة :

الحالة المدنية
مضمون
من دفاتر الحالة المدنية
وفـــاة

دفتر ترسيم الوفاة
سنة 1966
عدد الرسم 4577

الإسم اللقب	علال ـــ التجاني
تاريخ الوفاة مع بيان اليوم والشهر والسنة	[illegible]
مكان الوفاة	تونس
جنس المتوفي (ذكر أو أنثى)	ذكر
تاريخ الولادة ومكانها الجنسية والمهنة	جزائري [illegible] قسنطينة [illegible]
إسم الأب ولقبه ومهنته جنسيته	محمد التجاني - جزائري
إسم الأم ولقبها ومهنتها جنسيتها	ـــ
الوضعية العائلية أعزب - متزوج - مطلق - أرمل اسم الزوج ولقبه (عند الإقتضاء)	أعزب
تاريخ الإعلام بالوفاة مع بيان اليوم والساعة	الثاني [illegible] من نفس السنة
إسم من قام بالإعلام ولقبه أو المحكمة	[illegible]
إسم ضابط الحالة المدنية ولقبه وصفته	[illegible]

الملاحظات :

تونس في 12 جوان 2002
ضابط الحالة المدنية

الثمن 150 م

العدد الرتبي : № 14

تنبيه : كل من يقوم بالتدليس أو إدخال تغيير في وثائق الحالة المدنية يكون عرضة للتتبعات العدلية عملا بأحكام قوانين الحالة المدنية والمجلة الجنائية .

وثيقة رقم 6
مضمون وفاة الشريف علال التجاني

المصادر والمراجع المكتوبة

1. ابن عربي (محيي الدّين): التّجلّيات الإلهيّة، تعليقات ابن سودكين، تحقيق محمد عبد الكريم النري، ط1، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان، 1323هـ/2002م.

2. أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الأصفهاني): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر بيروت لبنان 1416هـ=1997م.

3. البخاري (محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري، بيت الأفكار الدّوليّة، العربيّة السّعوديّة، 1419هـ / 1998م.

4. برّادة (علي حرازم): جواهر المعاني، دار الجيل بيروت د ت.

البعقيلي (الأحسن):

5. الشرب الصافي في الكرم الكافي، المطبعة العربية، الدار البيضاء المغرب، 1934م.

6. سَوْقُ الأسرار إلى حضرة الشّهد السّتّار، ط2، الشّركة التّونسيّة للنّشر وتنمية فنون الرّسم، تونس 2009، ص18.

7. إراءة عرائس شموس فلك الحقائق العرفانية بأصابع ماهية التربية بالطريقة التجانية، المطبعة العربية، الدار البيضاء المغرب، 1934م.

8. تّميمي(الهادي): تونس من 1956م –1987م، ط1، دار محمد علي للنّشر، صفاقس تونس، 2006م.

9. حساين (الحسين) وآخرون–العلامة الأحسن البعقيلي رجل الفكر والإصلاح، مقال الفقيه العلامة الحاج الأحسن البعقيلي ودوره في الإصلاح ومقاومة الاستعمار الغربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، ط1، الدار البيضاء المغرب 2013م.

10. الذهبي (شمس الدّين محمد بن أحمد) –سير أعلام النّبلاء: أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، ط1، بيروت 1402هـ=1982م.

11. زرقي لطيف: الطريقة التجانية في تونس التاريخ والآفاق، دار الأهرام للطباعة والنّشر، تونس2019م.

12. السّائح: (العربي) بغية المستفيد لشرح منية المريد: تحقيق حمود عقيل، دار الجيل، ط2، بيروت 1426هـ=2005م

13. السّوسي (محمد مختار): المعسول: مطبعة النجاح الدار البيضاء المغرب، 1960م–1963م.

14. السّيوطي (جلال الدّين): الحاوي للفتاوى، فتوى الخبر الدّالّ على وجود القطب والأوتاد والنّجباء والأبدال.

15. السّيوطي (جلال الدّين): تنوير الحلك في رؤية النّبي والملك، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الأمان القاهرة مصر 1414هـ–1993م.

16. الشَّاطِبِي (إبراهيم): الموافقات في أصول الشّريعة، تحقيق عبد الله درّاز، دار المعرفة، بيروت لبنان، دت.
17. العجيلي: الطرق الصوفيّة والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسيّة، منشورات كليّة الآداب بمنّوبة، تونس 1992م.
18. العمدوني (جلال)، الطريقة التجانية في تونس، بحث لنيل شهادة الدّراسات المعمّقة في الحضارة الإسلاميّة، إشراف عبد القادر قحّة، جامعة الزّيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدّين 1997م-1998م.
19. الفوتي (عمر بن سعيد): رماح حزب الرّحيم على نحور حزب الرّجيم، حاشية على كتاب جواهر المعاني، المصدر السّابق.
20. الفيش (أحمد علي): أصول التّربية، ط5، الدّار العربيّة للكتاب ليبيا-تونس، 1985م.
21. المنظمة العربيّة للتربية والثّقافة والعلوم، دار الجيل، ط1، تونس 1428هـ=2007م.
22. أحمد العَيني (بدر الدين): عُمدة القاري شرح صحيح البخاري، ضبط وتحقيق عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1 1421هـ-2001م.

المعاجم وكتب التراجم

23. ابن العماد (شهاب الدّين)، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ط1، 1986م.
24. سكيرج (أحمد): كشف الحجاب، المكتبة الشّعبيّة، بيروت لبنان 1404هـ/1988م.
25. مخلوف (محمد بن محمد بن عمر بن قاسم): شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكيّة: خرّج حواشيه وعلّق عليه عبد المجيد الخيّالي، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت لبنان 1424هـ=2002م.
26. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، وزارة التربية والتعليم مصر، 1994 ص180.

المراسلات

27. رسائل الشيخ البعقيلي إلى الشيخ محمد قمار في تونس
28. رسالة إلى تلميذه الشيخ علي الأساكي بتاريخ 29 شعبان عام 1340هـ.

النشريات والدوريات

29. الرّائد الرّسمي التونسي الصّادر في 19 جويلية 1957م.

30. زاوية طرنجة (باب الخضراء) تونس، سلسلة زوايا الطريقة التّجانيّة، عدد1، الزّاوية التجانية تماسين، شعبان 1430هـ.
31. مجلة الصيدلي التونسي، سبتمبر 1991، عدد41.

المواقع الرقميّة

32. موقع القماري البعقيلي
\http://zaouiatijania-tn.com/?page_id=1525

فهرس الموضوعات



الكتاب في كلمات

يتناول الكتاب ترجمة أحد الشخصيات المهمّة في تاريخ الطريقة التجانيّة في تونس وقد عاش صاحب الترجمة على امتداد كامل القرن العشرين وتعتبر سيرته نموذجا فريدا في هذا المجال إذ تختصر تجربة أكثر من جيل وتعبّر أفكاره وتوجّهاته عن عصارة هذه التجارب، لذلك يعتبر تقديمها ولو بشكل برقيّ إضافة يستفيد منها المهتمون بهذا المجال من الباحثين والقرّاء.

